
خنساوات الجزائر
المجاهدة عيساوي علجية
أم الشهداء 1900-2002
جمع و تقديم :
بشير
هزرشي
منشورات عالم السعادة - الجلفة



اســــتهــلال

كنت طالبا في القسم النهائي يوم أُخْتِرْتُ لمسابقة تنافسية في التاريخ ، و كانت قد توافقت مع مشروع رعاه الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد (إعادة كتابة التاريخ الجزائري) ، لكن سرعانما توقف و ماتت الفكرة في مهدها ، لأنها فتحت أبوابا مجهولة مازال الجدل الشعبي من موروثه الشفهي قائما حولها ، و سارت الأمور سجالا من فتات ما يكتبه المجاهدون و المؤرخون أو ما تتقاذفه الذاكرتان الفردية و الجمعية أو ما يتساقط بعد من موائد الأرشيف الشحيح من خلال منظمة المجاهدين ، أما الكتابات الجادة فظلت حبيسة درجها خوفا أو جهلا أو نقيصة لعدم اهتمام أو مبالاة بإرث أمة يوشك على التفويت من جيل يتجشأ تلميعا مصطنعا لحب الوطن .

كانت الثورة ملهمة لغير الجزائريين ، أما لأصحابها فهي شحيحة جدا و لا تكاد تذكر مع منتوجها الضئيل و الضحل ، و المنسي منها ما

سجله جنود الظل ، فمسار الأحداث لا يكاد يسجل أو يذكر إلا من سلط عليهم الضوء منذ فجر اندلاعها ، و كان عمي رحمه الله ممن أتلف شواهد و إثباتات مشاركته ، فقد كان اعتقاده مع كثيرين ، أن ما قاموا به كان في سبيل الله ، و أن المقصد قد تحقق من دولة جزائرية مسلمة تخلصت من ربقة مستعمرمسخ كافرغاشم ، و عاش بقية حياته غير منتسب لوزارة المجاهدين و التي لم تجد له مسلكا ضمن مناضليها الشرفاء .

الكتابة عن الجزائر سحر و إلهام كبيران ، كل الأعمال تكبر في سياقها ، و كذلك الثورة تحكي معاني الجلال و الجمال و تكرر المحطات البديعة ... و بناؤها الأساسي يتمثل في تلك التضحيات التي قدمها الأحرار صنّاع الأمجاد لأمتهم .

ترددت صيحة (الخنساء) و هي تدفع ببنيها الأربعة إلى ساحة الجهاد في هذا النسيج ، لكنها لم تلمّع سوى المواعيد الفضفاضة بسبب الشهرة ، أما الزوايا المجهولة فكانت مليئة بأنساق (لخنساوات) مميزات ، خفيت على صحافة صفراء لم تعش تلك الصورة الحية المعشوقة لشهادة سطرت تاريخ الجزائر بلون و سمات مشرقة .

و أقيّد في هذا السجل رائدات من ذلك النسيج الفذّ ، عشت معهن صورة أخرى لجهاد الجزائر الناصعة بدم شهدائها الأبرار ، فرحم الله أولئك الأبطال و جزى خيرا أمهاتنا الصامدات الصابرات على جسيم تضحياتهن و جعل منزلتهن في علّيّين ...آمين .

بشير هزرشي

الجلفة في : 10 / 12 / 2017

دلالة الخنساء في التراث الإسلامي

أ – خبرها :

قدمت على رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مَعَ قَومهَا فَأسْلمت مَعَهم ، فَذكرُوا أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كَانَ يستنشدها وَيُعْجِبهُ شعرهَا فَكَانَت تنشده وَيَقُول : هيه هيه خناس . وَقَالُوا :وَكَانَت تَقول فِي أول أمرهَا الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَة ، حَتَّى قتل أَخُوهَا مُعَاوِيَة وَهُوَ شقيقها قَتله هَاشم وَزيد المريان وَقتل صَخْر وَهُوَ أَخُوهَا لأَبِيهَا طعنه أَبُو ثَوْر الْأَسدي فَمَرض مِنْهَا قَرِيبا من سنة ثمَّ مَاتَ فَأَكْثَرت الشّعْر عَلَيْهِمَا وَلَا سِيمَا أَخُوهَا صَخْر وَكَانَ أحبهما إِلَيْهَا وَكَانَ حَلِيمًا جوادا محبوبا فِي الْعَشِيرَة وَأجْمع أهل الْعلم بالشعر أَنه لم يكن امْرَأَة قبلهَا وَلَا بعْدهَا أشعر مِنْهَا وَشهدت حَرْب الْقَادِسِيَّة وَمَعَهَا أَرْبَعَة بَنِينَ لَهَا فحضتهم على الْقِتَال وَالْجهَاد فكلهم قتل فِي سَبِيل الله فَلَمَّا بلغَهَا الْخَبَر قَالَت : ((الْحَمد لله الَّذِي شرفني بِقَتْلِهِم وَأَرْجُو من رَبِّي أَن يجمعني بهم فِي مُسْتَقر رَحمته)) وَكَانَ عمر بن الْخطاب يُعْطِيهَا أرزاق أَوْلَادهَا الْأَرْبَعَة حَتَّى قبض رَضِي الله عَنهُ .

وكان ممن استشهد فى حرب القادسيّة بنو خنساء الأربعة، وكان من خبرهم أنّ أمّهم الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة، حضرت القادسيّة ومعها بنوها الأربعة، وهم

رجال، فقالت لهم من أوّل اللّيل: ((يا بنيّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وو الله الذى لا إله إلّا هو، إنّكم لبنو رجل واحد، كما أنّكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم؛ وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثّواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدار الباقية، خير من الدّار الفانية؛ يقول الله عزّ وجل: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))

، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرّت عن ساقها، واضطرمت لظّى على سبّاقها ، وجلّلت نارا على أوراقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها؛ عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، فى دار الخلد والمقامة. فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها، فلمّا أضاء لهم الصّبح باكروا مراكزهم، وأنشأ أوّلهم يقول:

يا إخوتي إنّ العجوز النّاصحه ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات تبيان واضحه ... فباكروا الحرب الضّروس الكالحه
وإنّما تلقون عند الصّائحه ... من آل ساســــــان كـــــلابا نابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه ... وأنتـــــــــــــــم بين حياة صالحه
أو موتة تورث غنما رابحه .))

ب ـ المدلول :

خنساء الأنف (أنفة)

منذ أن بزغ فجر الإسلام ليحرر الإنسان من العبودية لغير الله عرفت مسيرته الخيرة نساء عظيمات خلدهن التاريخ بما قدمن من تضحيات، وما سجلن من مواقف مشرفة كان لها أثرها في انتشار رسالة الحق في ربوع العالم .
ونحن هنا نقدم نخبة مختارة من النساء الخالدات اللاتي يعتز بهن الإسلام، لنوضح للمرأة المسلمة المعاصرة حجم العطاء المنتظر منها تجاه دينها ووطنها وأسرتها، خاصة في هذا الزمن الذي يموج بتحديات ومشكلات جمة تحاول صرف المرأة عن القيام بدورها الذي رسمه لها دينها الحنيف .
بعض نساء المسلمين يحملن قلوباً أقوى من قلوب الرجال ويتمتعن بصبر نادراً ما تجد له مثيلاً عند الصابرين الراضين بقضاء الله وقدره، ويملكن حكمة تفوق ما عند الحكماء البلغاء الذين رزقهم الله صدق الإيمان وجميل البيان .
و قد ضربت الخنساء المثل والقدوة في الصبر والرضا بقضاء الله وقدره، وفي الشعر غلبت فحول الشعراء، وبحكمتها أسكتت وأبهرت الحكماء والبلغاء .
إنها تماضر بنت عمرو بن الحرث المعروفة باسم الخنساء بنت عمرو (575 - 664) وكانت تسكن في إقليم نجد ولقبت بهذا الاسم بسبب ارتفاع أرنبتي أنفها .
والخنساء من أشهر شعراء الجاهلية، وقد طغى على شعرها بعد مقتل أخويها معاوية وصخر الحزن والأسى والفخر والمدح، وقال عنها النابغة الذبياني: "الخنساء أشعر الجن والإنس" .

حزن لا ينقطع

وأقبلت الخنساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وفد من قومها وأعلنت إسلامها، وكان عليه الصلاة والسلام يستمع إلى شعرها .
سألها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يوماً: ما أقرح مآقي عينيك؟
قالت: بكائي على السادات من مضر .
قال: هم في النار يا خنساء .
قالت: كنت أبكي لهم من الثأر، واليوم أبكي لهم من النار .
وقد أدت الخنساء رضي الله عنها فريضة الحج في خلافة عمر، وعندما لامها على ارتداء ملابس الجاهلية حزناً على أخويها، أنشدت قصيدة تعجّب منها عمر لبلاغتها وقال لأصحابه: دعوها، فإنها لا تزال حزينة .

ويروى أن الخنساء دخلت يوماً على السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وهي ترتدي خماراً ممزقاً وصداراً من الصوف، وهي ملابس الحداد للنساء على الراحلين في الجاهلية وتدب على عصاها من الكبر، ودار بينهما الحوار التالي:
يا خنساء .
ـ لبيك يا أماه .
أتلبسين هذا الرداء وقد نهى عنه الإسلام؟
ـ لم أعلم بهذا .
وما الذي دفعك إلى هذه الحال؟
ـ موت أخي صخر .

أخ نادر

وهنا كشفت الخنساء خصال أخيها صخر، وسر حزنها عليه للسيدة عائشة رضي الله عنها، حيث كان زوجها مقامراً متلافاً وأراد أن يغادر أو يسافر فطلبت منه الانتظار، على أن تطلب المساعدة من أخيها صخر ـ وهو أخ من أب ـ وعندما سألته شاطرها ماله (أي أعطاها نصفه) فأعطته لزوجها فقامر به وخسر .
وعادت إلى شقيقها تشكو حالها، فكرر معها صخر ما سبق، وكرر زوجها ما فعل .
وفي المرة الثالثة تدخلت زوجة صخر، وكان اسمها سلمى، وطلبت منه أن يكف عن مساعدة هذا الزوج المقامر، وأن يعطي أخته القليل على قدر حاجتها، فأنشد شعراً يؤكد فيه أن مساعدتها واجبة عليه، لأن أخته أولاً صانت شرفه بعفتها وسيرتها الطيبة، وتخاف عليه وهو على قيد الحياة، وتحزن عليه إذا مات . وأعطى صخر نصف ماله إلى أخته، ووفت هي بعهدها وقالت: والله لا أخلف ظنه ما حييت .
ومما سبق يظهر سر حزن الخنساء على أخيها "صخر" وهو أخ من أب، كما سبق القول أكثر من حزنها على أخيها لأمها "معاوية"، رغم رحيل الشقيقين قتيلين، فصخر كان أكثر عطفاً عليها ورعاية لها، هذا فضلاً عن أنها تشعر بالذنب حيث حرضته على الثأر لأخيه الذي مات مقتولاً مما تسبب في إصابته

إصابة أدت إلى موته . . ومما قالته في رثائه وهي ترسم صورته وتحدد أوصافه:

ما بال عينك منها دمعها سرب

أراعها حَزَن أم عادها طرب

أم ذكر صخر بعيد النوم هيجها

فالدمع منها عليه الدهر ينسكب

يا لهف نفسي على صخر إذا ركبت

خيل لخيل تنادي ثم تضطرب

قد كان حصناً شديد الركن ممتنعاً

ليثاً إذا نزل الفتيان أو ركبوا

أغر أزهر مثل البدر صورته

صاف عتيق فما في وجهه ندب

يا فارس الخيل إذ شدت رحائلها

ومطعم الجوع الهلكى إذا سغبوا

صبر عجيب

من أعظم المواقف التي تسجل للنساء صبرهن على رحيل فلذات أكبادهن في ساحات الجهاد والكفاح الوطني، وقد سجلت الخنساء اسمها بحروف من نور في قائمة الأمهات الصابرات المحتسبات، حيث ابتليت برحيل أولادها الأربعة (عمرة، وعمرو، ومعاوية ويزيد) في معركة القادسية وكانت مثالاً للأم الصابرة الثابتة قوية الإيمان .

وكانت الخنساء قد حثت أبناءها الأربعة على القتال دفاعاً عن الدين والوطن حيث تنقل لنا الروايات الموثقة أنها وقبل بدء القتال أوصتهم فقالت: "يا بني لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم"، إلى أن قالت: "فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجعلت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والقيامة" .

وعندما دارت المعركة استشهد أولادها الأربعة واحداً تلو الآخر، وحينما بلغ الخنساء خبر مقتل أبنائها الأربعة كانت نعم الأم المؤمنة الصابرة ورددت كلمات تعبر عن عمق إيمانها .
وهكذا كانت وصية الخنساء الأم المسلمة المؤمنة لفلذات كبدها قبل المعركة وصية خالدة تجسد قوة إيمانها وصبرها وحبها لأولادها، فما أعظم الشهادة دفاعاً عن الدين والوطن والكرامة .
وكان الأبناء الشهداء نعم الأبناء حيث كانوا في الصباح الباكر في مقدمة الصفوف ينفذون وصية الأم الحكيمة، ولما بلغها خبرهم قالت كلماتها المأثورة التي عاشت على جبين الزمان على مدار الأيام والأعوام: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم جميعاً في سبيل الله ونصرة دينه وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته" .
لم يكتب الله لها شرف الشهادة في ميادين القتال، لكنه كتب لها أجراً وثواباً يفوق أجر من ضحى بروحه فداء لدينه أو وطنه أو دفاعاً عن حرماته وكرامته جزاء ما صبرت على فراق أبنائها الأربعة الذين استشهدوا واحداً تلو الآخر في معركة القادسية التي تعتبر من أهم المعارك المصيرية في تاريخ الإسلام .

نجمة عكاظ

في سوق عكاظ كان النابغة الذبياني يجلس تحت قبة حمراء، ويستمع إلى قصائد الشعراء ويحكم بينهم ويحدد مراتبهم، وفي إحدى السنوات أنشدت الخنساء قصيدتها الرائعة في رثاء أخيها صخر التي تقول في مطلعها:
قذى بعينيك أم بالعين عوار
أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت
فيض يسيل على الخدين مدرار
وأعجبت القصيدة النابغة وقال لها: لولا أن الأعشى أنشد قبلك، لفضلتك على شعراء هذه السنة، فغضب حسان بن ثابت وقال: أنا أشعر منك ومنها .
فطلب النابغة من الخنساء أن تجادله، فسألته: أي بيت هو الأفضل في قصيدتك فقال:
لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قالت له: إن في هذا البيت سبعة من مواطن الضعف .
قال: كيف؟
فقالت الخنساء: الجفنات دون العشر، ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت "الغر" والغرة بياض في الجبهة، ولو قلت "البيض" لكان البياض أكثر اتساعاً، وقلت "يلمعن"، واللمعان انعكاس شيء من شيء، ولو قلت "يشرقن" لكان أفضل، وقلت "بالضحى" ولو قلت "الدجى" لكان المعنى أوضح وأفصح، وقلت "أسيافاً" وهي دون العشرة، ولو قلت "سيوف" لكان أكثر، وقلت "يقطرن" ولو كانت "يسلن" لكان أفضل، فلم يجد حسان كلمة يرد بها .
كانت حياة الخنساء حافلة بالحزن والصبر على أبنائها الشهداء وأخويها القتيلين، وكانت أيضاً حافلة بالإبداع الشعري، وتدفقت من أشعارها كل ألوان الحكمة وظلت تعطي في شيبتها حتى ماتت في أول خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه (سنة 24 هجرية - 646 ميلادية) .



ج – نموذج للخنساء فريد من نوعه :

خنساء أولاد نايل (منقول عن الجلفة أنفو)

كتبتها الحاجة قذيفة بنت عمران المتوفاة سنة 1983 و التى بكت فيها أخاها سنة 1935 تشبه بكاء الخنساء أو رثاءها لأخويها معاوية و صخر .



البحث في سيرة الشهيد "الطاهر عمران" لم يكن سوى نتيجة للبحث عن القصيدة التي رثته بها أخته "قذيفة عمران" بسبب تجنيده الإجباري سنة 1935. "الجلفة إنفو" استقصت سيرة هذا الرجل التي استحقّت أخته لقب "خنساء أولاد سي أحمد" واستحق هو لقب "الشهيد صاحب القبر المجهول’

ولد "الطاهر عمران" سنة 1902 ببادية بلدية الزعفران وتربى وعاش في كنف أسرة ربّت أبناءها على الأخلاق الحميدة والمحبة ككل أسر منطقة الجلفة. وعاش "الطاهر" طفولته مثل جميع أقرانه يمارس نشاط الرعي والفلاحة بأرضهم بمنطقة "أمّات البكرات" بتراب بلدية الزعفران. ولم يلبث طويلا حتى بدات مأساة العائلة عندما قامت سلطات الإحتلال الفرنسي سنة 1935 باستدعاء الشاب "الطاهر عمران" للتجنيد الإجباري وساقته الى مركز التجنيد من مدينة الجلفة الى العاصمة عبر قطار الجلفة. ونتيجة لمأساة أسرة "عمران" كتبت فيه أخته الصغرى "قذيفة بنت عمران" قصيدة مازالت معروفة الى اليوم تصف فيها ذلك اليوم الذي سيق فيه أخوها الى التجنيد الإجباري بـ "الهند الصينية" وهو البلد قالت عنه :

ياحسراه على هذاك البر الي فيه خويا *** وما عرفنالوا لا هـــوا ولا نصاب

بقي المجنّد "عمران الطاهر" 15 سنة جاب خلالها عدة دول وشارك في الحرب العالمية الثانية لتنتهي فترة تجنيده سنة 1950 ويتمّ تسريحه من الجيش الفرنسي. حيث قرّر الإستقرار بمسقط رأسه بمنطقة "أمّات البكرات" بالزعفران أين فتح ورشة لجمع الحلفاء ودكّانا لبيع المواد الغذائية. وبمجرّد اندلاع حرب التحرير سنة 1954، كان "عمران الطاهر" من أوائل من لبّوا النداء. فرُغم تقدّمه في السنّ، الاّ أنه قد جعل من دكانه مركزا لتمويل الثورة بالأموال والأغذية وكل حاجيات المجاهدين وحتّى اخفائهم عن عيون العدو الفرنسي. واستمرّ على هذا النهج الى غاية سنة 1958 أين تمّ اكتشاف أمره من طرف عصابة الخائن بلونيس. هذا الأخير أمر زبانيته باعدام "الطاهر عمران" فتمّ اختطافه من دكانه وساقه الخونة الى "غابة شعبة بن كربوع" (طريق الجلفة-الشارف حاليا) حيث قاموا بذبحه ورمي جثمانه وسط الأشجار.

وبعد يومين من إعدام الشهيد "الطاهر عمران"، عثر عليه أحد البدو الرّحل القاطنين بتلك المنطقة وهو "الحاج البشير الدريزي" الذي ينحدر من بلدية بن يعقوب، فقام باكرامه بدفنه بعد أن لاحظ أنّ احدى أسنان الشهيد "الطاهر عمران" مصنوعة من الذهب وقصّ هذه الحادثة على كل من عرفهم.
وبالتوازي مع ذلك ظلّت عائلة "عمران" تجهل مصير ابنها المختطف الى أن علمت لاحقا أنه قد تمّ اعدامه من طرف مختطفيه ولكن دون أن تعلم أن "الحاج البشير الدريزي" قد دفنه.

وفي سنة 1999 علمت العائلة بالصدفة عن قصّة الشيخ الذي دفن شهيدا إحدى أسنانه مصنوعة من الذهب وأن هذا الشيخ يقيم ببلدية بن يعقوب، فقصدوا عائلة الحاج "البشير الدريزي" غير أن هذا الأخير كان قد أصابه المرض والشلل ولم تعد له القدرة على الكلام لتفقد العائلة من جديد الأمل في العثور على قبر ابنها الشهيد من أجل إعادة دفنه.

و القصيدة التي جمعها السيد "عمران عبد الله" حفيد الشهيد "عمران الطاهر"هي القصيدة التي كتبتها الحاجة قذيفة بنت عمران المتوفاة سنة 1983 و التي بكت فيها أخاها سنة 1935 عندما تمّ تجنيده إجباريا وأخذه الى مركز التجنيد عبر القطار (شيمان دو فار) :

تـــــــــــــــوحشنا شوفتك يـــا لميما *** وفكرنا فيها الطاهر يـوم ان غاب

شيمان دي فير ادات مومــن عينيــا *** وخــلات الي كية هذا حال التعـذاب

من بعدك برك يالطاهــر بن بويــا *** ومن فرقت زين المكاحل راسي شاب

من غيرك في الناس مالــــي سهميا *** وعارف حـــق الخـــو خالف

ايشدنــــــــا فيك ساعــــة فــــالدنيا *** ويحيد عنا كـل ضر وكـــل مصاب

من يومـــــك ماكان من طل عليــا *** والله ياون أنموت مشداقــة لحبــــاب

ماهو وحدو في رفاقـــات قويــا *** وغير طيـور مصفية لاحت لثــــواب

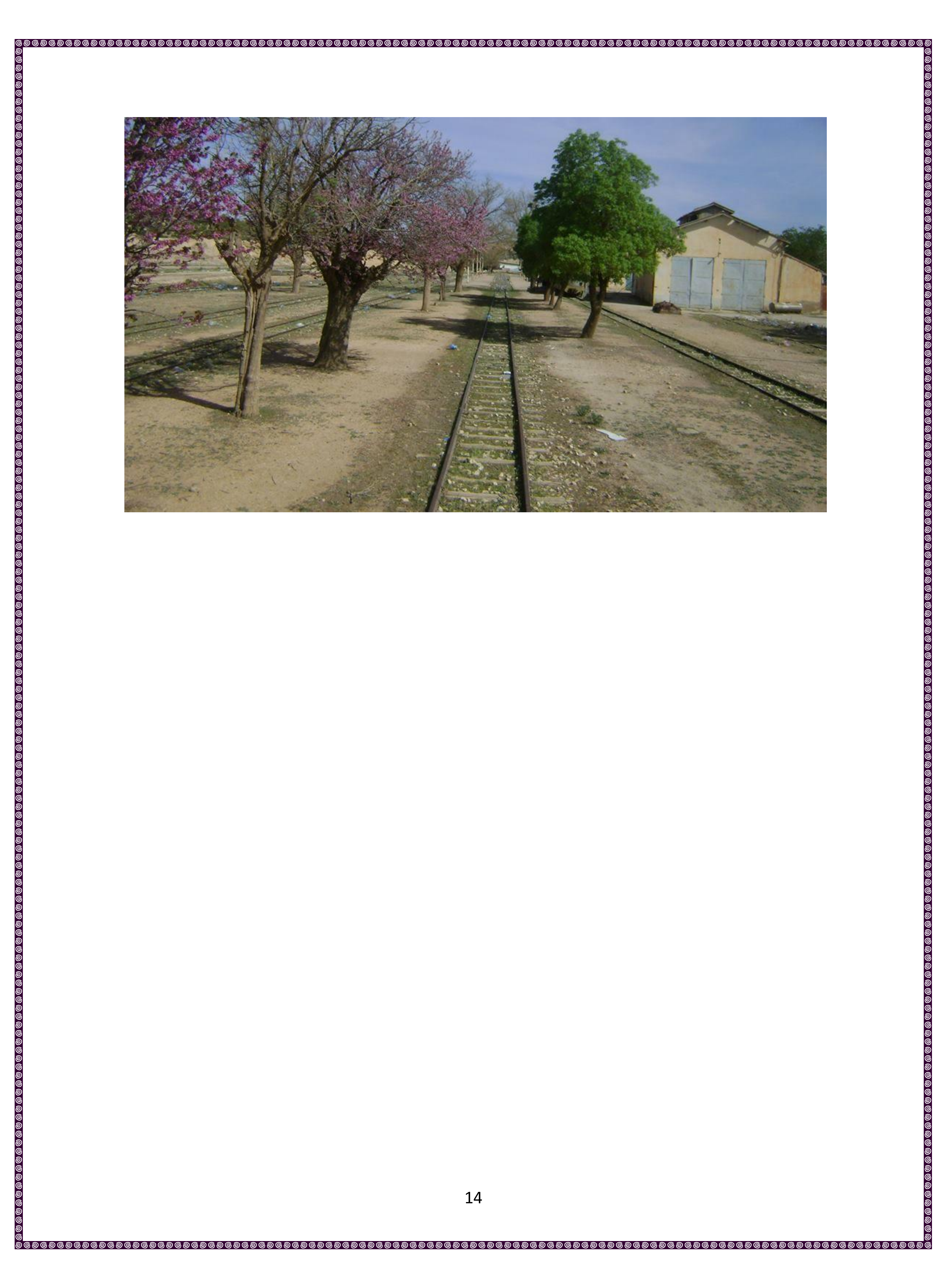
يحسراه على هذاك البرالي فيه خويـا *** وما عرفنالوا لهـــوى ولا نصاب

يابن عيسى المايـــدي تهـــــدف ليا *** وعلى خويــــا نادهـــا قع الشياب

اهـــــــل الله فيهم شوايـرمخـــــفيا *** وآخريخطف بالمخالب وآخــر بالنّاب

تهدف ليه الطيور من كــــــل ثنايا *** ويترفد هذا البلاء في بـــرج سحاب

قرن العرف وفيه خلـــــوة مخفيا *** وسكانها دحمان بكـــــري عنها غاب



خنساوات الجزائر ضحين فنلن الاستقلال

حضور المرأة الثائرة إبان الاحتلال لم تبدأ حكايته مع انطلاق ثورة نوفمبر المجيدة فقط ، فالمرأة منذ 1830 واجهت العدو الفرنسي ، و لا مجال أن ننسى أم المجاهدات " لالة فاطمة نسومر" التي قادت ابرز المقاومات الشعبية في الجزائر رفقة الثائر "بوبغلة" حيث كانت المنتصرة في عدة معارك خاضتها ضد جنرالات فرنسيين امثال الجنرال " ميسات "...



لالة فاطمة نسومر

و من خنساوات الجزائر اللواتي سجل لهن التاريخ أسماءهن بحروف من ذهب " جميلة بوحيرد" التي ذاعت قضيتها داخل و خارج الوطن و غنى لها الأدباء و الشعراء بأجمل القصائد نظرا لمواقفها الشجاعة ضد المستعمر و ماعانته من تعذيب داخل السجون الفرنسية فهي رمز من رموز الثبات ضد الاحتلال ، و لنا في تاريخ المراة الجزائرية المجاهدة العديد من الاسماء و ممن سقطن شهيدات اثناء المعارك و المطاردات و الحروب امثال "حسيبة

بن بوعلي" و "مليكة قائد "و "مريم بوعتورة" و غيرهن ممن قدمن أرواحهن فداء للجزائر.

















كذلك لم يقتصر دورها داخل الجزائر بل خارجها أيضا حيث كانت المرأة الجزائرية تجاهد و تضحي و تقود المظاهرات و لنا في هذا المثل الشهيدة فاطمة بدار" التي اغتيلت في مظاهرات 17 اكتوبر 1961 في عاصمة " حقوق الانسان باريس احتجاجا على حظر التجول الذي فرض على الجزائريين تمييزا آنذاك ، و قد وجدت جثتها بعد 15 يوما و هي في حالة متقدمة من التعفن ، الشهيدة التي كانت تبلغ من العمر 15 سنة فقط كان استشهادها دليل على همجية الاستعمار و قوة التحدي لدى المرأة الجزائرية ضد المحتل في عقر داره.



الشهيدة فاطمة بدار: 5 اوت 1946 بجاية – 17 أكتوبر 1961 باريس

مجاهدات و شهيدات الولاية السادسة و المنطقة الثانية في طي النسيان

إذا كان الباحث يتأسف على غياب بعض أسماء المجاهدات في الولايات الكبرى كالولاية الأولى و الثانية و الثالثة فماذا عن الباحث الذي يفتش عن اسماء الولاية السادسة الغائبة تماما عن الساحة التوثيقية و ليس ساحة الثورة التي لا شك فيها ان المرأة في ولايات الجنوب قد ساهمت كغيرها من الجزائريات في مقاومة الاستعمار، لكن تبقى معضلة كتابة التاريخ بالولاية السادسة و المنطقة الثانية خاصة التي تعج بأحداث بالغة الأهمية سجينة قيد الاعتقال و لن نعلم متى ستنعتق ليعرف جيل الاستقلال و جيل التشييد تاريخه بصورة صحيحة ، و لربما المرأة في ولايات الجنوب تمتاز كونها امرأة ريفية اكثر منها مدنية كغيرها من خليلاتها في الشمال و هذا راجع الى الطبيعة المحيطة بها مما يصعب ربما احصاء المجاهدات و الشهيدات اللواتي عملن في الارياف مساندة للثورة الجزائرية في مختلف الاشكال مسبلات ....فدائيات .....

و قد كان المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية قد تحدث في الملتقى الوطني الأول الذي انعقد حول كفاح المراة الجزائرية مجموعة من الاحصائيات ظهرت في 1995/08/15 للمجاهدات بمختلف أعمالهن في العديد من ولايات الجنوب حيث ذكر المدن التي كات تحت ظل الولاية السادسة ابان الثورة الجزائرية فنجد أن الاغواط قد حضنت 95 مجاهدة ، المسيلة 433 مجاهدة ، الوادي 43 مجاهدة ، تمنراست 36 مجاهدة ، اليزي 3 مجاهدات ، غرداية 58 مجاهدة و بسكرة 287 مجاهدة اما ورقلة 19 مجاهدة و عن الجلفة فقد قدمت الاحصائية 3 مجاهدات انضوين تحت A.L.N في O.C.F.L.N جيش التحرير الوطني ، 87 مجاهدة عملن تحت لواء المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني، و من استشهدن 8 ... ليكون المجموع 98 مجاهدة كلهن في طي النسيان تقريبا .

زهـرات من بستان المنطقة الثانية

رحلة البحث عن بعض أسامي المجاهدات في المنطقة الثانية على وجه الخصوص انتهت بالوصول إلى بعض اللواتي شاركن في الثورة المجيدة مثل :

الشهيدة بن قويدر خديجة : ولدت في 02 جانفي 1938 بالجلفة ابنة يحي و فاطنة التحقت بصفوف الثورة (المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني) 1960 استشهدت في 29 مارس 1961

الشهيدة مصيطفى امباركة: و لدت سنة 1908 بدار الشيوخ ابنة فرحات و مسعودة التحقت بصفوف الثورة (المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني) بالناحية الاولى المنطقة الثانية للولاية السادسة هيكلت من طرف الشيخ لقليطي ، استشهدت في 24 نوفمبر 1958

الشهيدة قويدري فاطنة: ولدت سنة 1931 بدار الشيوخ ، ابنة بن علية و بختة التحقت بصفوف الثورة (المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني) مسبلة سنة 1959 بالناحية الاولى المنطقة الثانية للولاية السادسة هيكلت من طرف السيد رابحي و استشهدت في 1961 بالمويلح.

الشهيدة قطاف فريحة: ولدت سنة 1914 باولاد بن علية ، ابنة محمد التحقت بصفوف الثورة (المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني) بصفة مسبلة سنة 1956 استشهدت في نفس السنة بمناعة.

الشهيدة روام فطوم : ولدت سنة 1943 بالزعفران ابنة زيان و زينب التحقت بصفوف الثورة (المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني) بصفة مسبلة سنة 1959 بالناحية الاولى المنطقة الثانية للولاية السادسة ، قدمت الشهيدة عدة مساعدات الى الجنود منها جمع المؤونة و السلاح الى المجاهدين و استشهدت سنة 1961

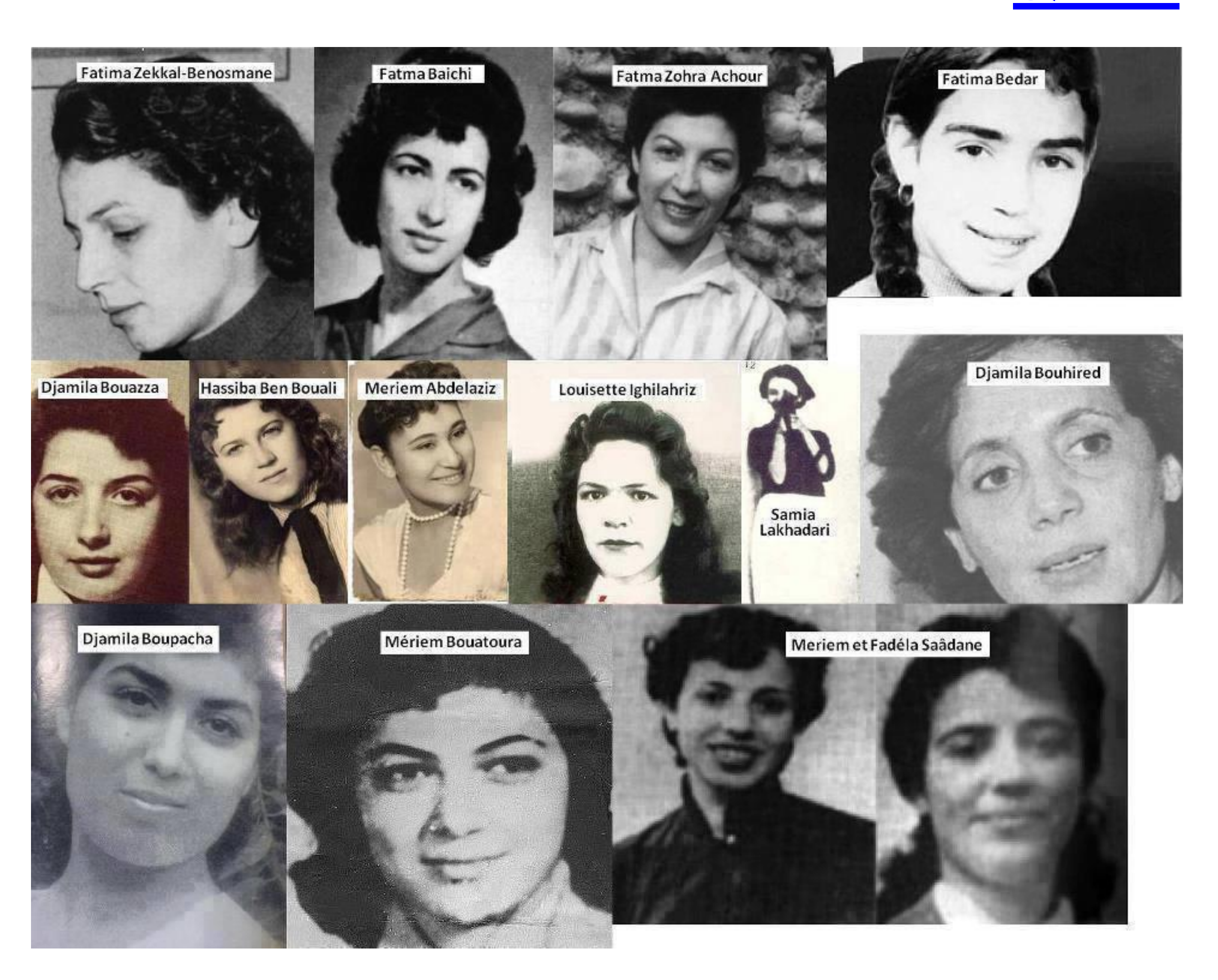
و بالاضافة الى هذا فقد تصادفك اثناء تقليب صفحات التاريخ صورة للضابط الشهيد "الصادق شبشوب" و زوجته "عيدة" التي كانت ترتدي زيا عسكريا مع فرقة من جيش التحرير الوطني بالولاية السادسة حيث أخذت الصورة بجبل بوكحيل ، تجندت والتحقت بزوجها في جبال الأوراس من سنة 1947 ، و شاركت في معركة "الكرمة و جريبيع" ببوكحيل في سبتمبر 1961، وقد أبلت في المعركة مظهرة شجاعة فائقة من أخدودها ، و التي كانت تحمل سلاح الخماسي .... و يعتبر الزوجان من أصول شاوية .



صورة من جبل بوكحيل بالجلفة : فرقة من جيش التحرير الوطني يتوسطهم الشهيد شبشوب و زوجته "عيدة" و الشهيد عثمان ركبة

خــنســاوات شــهيــرات

بطلات سجلن أسماءهن بأحرف من ذهب في دفتر الخالدين

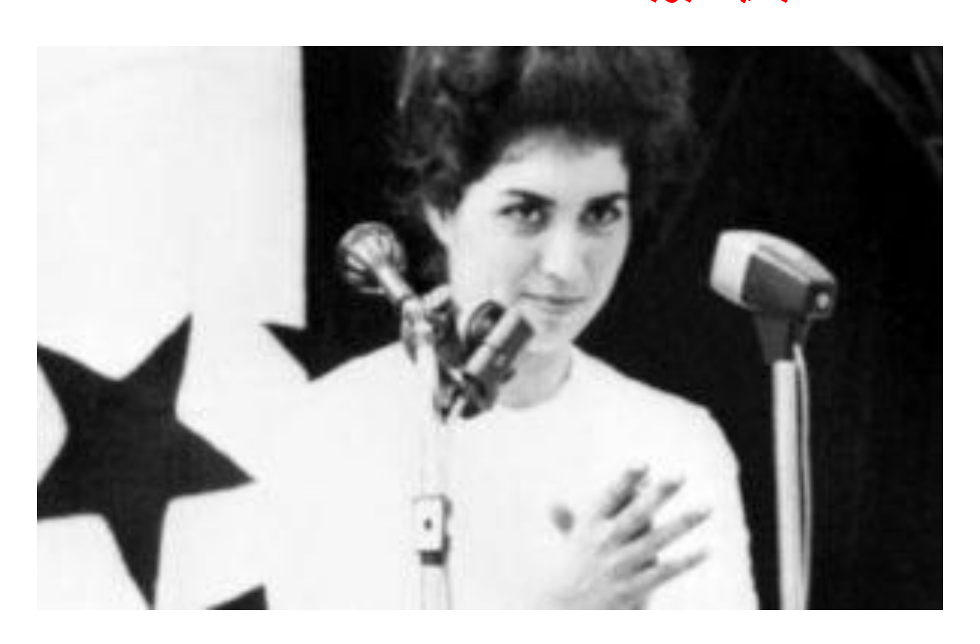


شكلت المرأة الجزائرية عنصرا أساسيا في الثورة التحريرية ، ووقفت إلى جانب شقيقها الرجل في تحمل المسؤولية تجاه الثورة التحريرية وبالتالي كانت المرأة الجزائرية سندا قويا للمجاهدين الذين حملوا السلاح ضد الاستعمار الفرنسي وقد أبلت بلاء منقطع النظير أظهرت من خلاله أنها النفس الثاني للثورة التحريرية، وأدت واجبها الوطني إلى جانب أخيها الرجل، واستطاعت المرأة الجزائرية أن تكون عنصرا فعالا في كسر الحصار الذي حاول الجيش الاستعماري ضربه على المقاومين ، فكانت مساهمتها قوية في تقديم الخدمات الكبيرة التي كانت الثورة بأمس الحاجة إليها .

هي التي شاركت في معركة الجزائر و فضلت الاستشهاد على الاستسلام إنها "حسيبة بن بوعلي"، هي التي عذبت أشد أنواع العذاب في السجون الفرنسية و أخرجت العالم من صمته لأجلها إنها "جميلة بوحيرد"، هي التي اختبأت في مركز لشرطة الفرنسية عندما أصدر مذكرة

لإلقاء القبض عليها إنها "لويزة إيغيل أحريز"، هي من حملت السلاح مع الرجل و لم تنم ليالي من أجل إطعام المقاومين أيام الثورة التحريرية هي من ولدت العربي بن مهيدي و ديدوش مراد و زيغود يوسف و غيرهم .

المناضلة جميلة بوباشا



جميلة بوباشا أو (خليدة) و هذا إسمها الثوري ولدت بسانتوجان (بولوغين) في 9 فيفري 1938، تابعت تعليمها الابتدائي بمدرسة الحي، ثم انتقلت مع عائلتها إلى دالي إبراهيم، كان عمرها آنذاك 8 سنوات، وفي هذا السن المبكرة بدأ اهتمامها بما يجري في وطنها، فقد كان والدها مناضلا في حزب الشعب الجزائري .

ولما غادرت المدرسة الخاصة بالعاصمة، نصحها والدها أن تتابع تعليمها لتتكون في مهنة السكرتاريا وهو ما فعلته بالانتساب إلى مدرسة بيجي بساحة أودان كان عمرها آنذاك سبعة عشرسنة ، ومن هنا بدأ توجهها النضالي، فانخرطت جميلة في الاتحاد الديمقراطي لحزب البيان الجزائري بزعامة "فرحات عباس"، وفي سنة 1953 خطت جميلة خطواتها نحو الانخراط في الثورة .

بدأت جميلة بالعمل في صفوف الثوار في سنة 1955، "فقد بدأت بأشياء صغيرة" كتوزيع المناشير، والدعاية للثورة وحمل"القفاف" الصغيرة التي بها القنابل التي تفجر في صفوف الأعداء، وربط الاتصال بين المجاهدين...، لقد استمرت في مثل هذا العمل النضالي إلى غاية سنة 1958، ثم التحقت بالجبال حيث بقيت رغم الأوامر بضرورة لحاقها بتونس أو المغرب، وبعد عدة أسابيع قررت العودة إلى العاصمة، واندمجت في الصفوف العاملة بالعاصمة في خلايا جبهة التحرير الوطني، فقامت بدور توزيع الإعانات لعائلات المجاهدين والمساجين والشهداء .

تم توقيفها في 06 فيفري 1960 وهي متلبسة بعملية فدائية ووضعت في السجن العسكري وتم تعذيبها عذابا وحشيا من طرف الجيش الفرنسي الذي كان حاقدا عليها وحكم عليها بالإعدام سنة 1961 ولكنه تم الافراج عنها بموجب اتفاقيات ايفيان في 07 ماي 1962

المناضلة جميلة بوعزة



Djamila Bouazza, avec sa bombe, lors de la reconstitution de l'attentat de la Cafeteria à Alger.

لم يكن يتجاوز عمر الفتاة جميلة سبعة عشر سنة حينما انضمت إلى العمل الفدائي في صفوف جبهة التحرير الوطني، وكانت حينها تلميذة تحضر لشهادة التعليم المتوسط . وأول من ضم جميلة بوعزة إلى الثورة والعمل الفدائي صديقتها "جميلة بوحيرد" ، في سنة 1956 حيث كانت سبقتها إلى ذلك، ثم انضمت إليها "زهرة ظريف" التي قدمت نفسها على أنها ستعمل في سبيل الوطن وتضحي من أجله، وثلاثتهن كن يعملن تحت القيادة المباشرة لياسف سعدي.

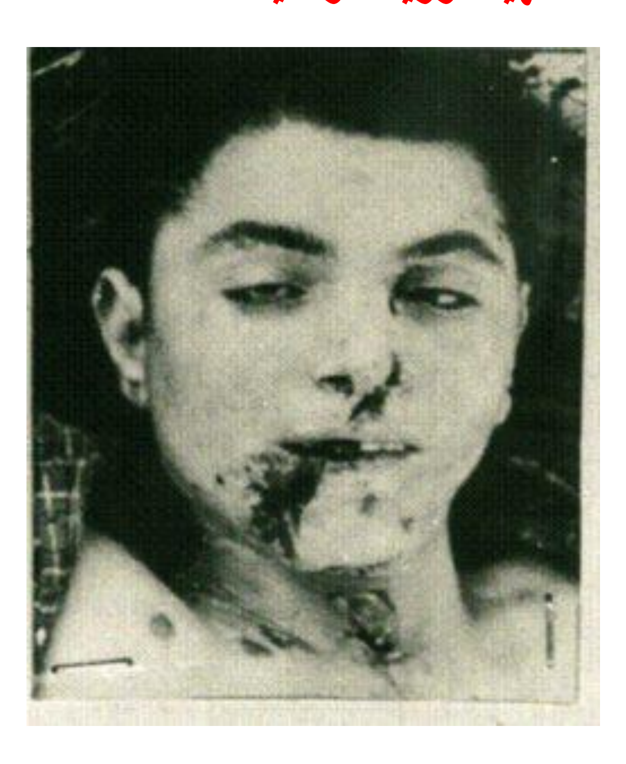
أول عملية كلفت بتنفيذها جميلة بوعزة ونفذتها ، كانت في شارع "ميشلي" ديدوش مراد حاليا ، وذلك في شهر نوفمبر من عام 1956 ، حيث تلقت قنبلة كبيرة من زميلتها جميلة بوحيرد في شارع "لالير" ، وقطعت بها العديد من الحواجز ، لتضعها كما هو مخطط في مبنى بجانب المصعد، تسبب انفجارها فيما بعد في أضرار مادية كبيرة جدا، بالإضافة إلى الهلع الذي دام أثره أسابيع، بهذه العملية بدأت الفدائية امتحانها ، ومن يومها تأكد ضمها لفرق العمل الفدائي في مدينة الجزائر العاصمة ومحيطها، وكان الاعتماد عليها كبيرا.

لكن التحريات والمتابعات أوقعتها في كمين، وأقتيدت مباشرة إلى منطقة الأبيار وأدخلت عمارة كبيرة كانت في طور الإنجاز، وهناك وجدت زميلتها "جميلة بوحيرد" وشقيقها الذي لم يكن يتجاوز عمره الاثنى عشر عاما. هالها منظر صديقتها التي كانت تقطر دما من كامل وجهها ورأسها، وفي نفس المكان تلقت هي الأخرى من الضرب والتعذيب ما أفقدها وعيها، وحينها اعترفت بانتسابها إلى جبهة التحرير، واعترفت لمعذبيها بأنها كانت واحدة من اللائي زرعن الرعب في مقهى أو شارع أو بناية وأن بنات الجزائر كلهن جميلة، وهن جاهزات في كل حين لزرع المزيد من الذعر.

وبالرغم من أن هذه الجرأة والشجاعة جلبتا لها الكثير من التعذيب ، لم يحصل المحققون من جميلة على شيء يفيدهم، خضعت جميلة خمسة عشر يوما للتحقيقات كانت فيها عرضة للإهانات

والتعذيب من كل لون، ثم نقلت بعدها إلى سجن بربروس الشهير، وكانت بوحيرد والعديد من الفدائيات والفدائيين قد سبقوها إلى هناك.
قضت جميلة بوعزة أربعة أشهر كاملة في بربروس، إلى أن جاءت المحاكمة الشهيرة لها ولزميلتها بوحيرد، ومعهما عبد الرحمن طالب، وعبد العزيز مرسلي، والتي كانت نتيجتها الحكم بالإعدام على الجميع، وبعد مجيء الجنرال ديغول إلى الحكم، ونتيجة للضغط العالمي آنذاك على كل استفزازات المستعمر، واحتجاج المنظمات الإنسانية في الكثير من البلدان، وعلى المحاكمة غير العادلة اضطر الجنرال ديغول إلى إلغاء الإعدام بالنسبة للنساء وتعويضه بالسجن المؤبد، ثم أطلق سراحها في أفريل عام .1962

الشهيدة وريدة لوصيف



الشهيدة البطلة وريدة لوصيف صورتها وهي مضرجة بالدماء بعد أن اخترق رصاص رشاش العدو كامل جسدها فسقطت شهيدة وهي تحمل السلاح، إنها شهيدة الوطن وريده لوصيف من مواليد 24 فيفري 1940 بقالمة تنتسب لأسرة ثورية وطنية متوسطة الحال لأب يدعى ‘‘سي السعيد’’ وأمها ‘‘شتوف هنية’’ تعلقت منذ نعومة أظافرها بنضال الشعب الجزائري رافضة سياسة الأمر الواقع التي يحاول الاستعمار الفرنسي فرضها على الشعب .

في السادس من نوفمبر عام 1958 التحقت بصفوف جيش التحرير الوطني بالولاية التاريخية الثانية الشمال القسنطيني، وبعد حياة كلها نضال وجهاد فازت بالشهادة يوم 31 جويلية 1959.

الشهيدة مريم بوعتورة



التحقت بالثورة على مستوى الولاية الثانية سنة 1956 وساهمت في عدة عمليات فدائية وقد أثبتت من خلالها شجاعة نادرة وكانت آخر هذه العمليات الفدائية تلك التي نفذتها إلى جانب زميلها الشهيد ‘‘الحملاوي’’ وكانت هذه العمليات ضد المؤسسات والمنشآت العسكرية ومراكز الشرطة وقتل الخونة والحركة، وبعد الوشاية بهما تم اكتشافهما لذا لجأ الاثنان إلى أحد المنازل والتي تم محاصرته من مريم بوعتورة’’ شهيدة الوطن في ‘‘طرف الجيش الفرنسي الذي قام بنسفه بالديناميت لتسقط المجاهدة 08 جوان .1960

الشهيدة زليخة عدي



اسمها الحقيقي "يمينة الشايب" ولدت في 7 ماي 1911 بحجوط، ونشأت وكبرت في مدينة شرشال، وهي من عائلة مناضلة.
كان نشاط الشهيدة محل ملاحقة واهتمام من طرف رجال الأمن الفرنسيين، إلا أن شدة كتمانها للسر وحنكتها وذكائها جعلهم يعجزون عن كشف المهام التي كانت تقوم بها وكانت تتمتع بثقة كبيرة لدى لكسر شوكة (ASS) المجاهدين، كان لها دور ريادي في نشر الوعي الوطني وإفشال مخططات الثورة وعزلها عن الشعب، وخاصة في الأرياف المجاورة لمدينة شرشال، كانت تقوم بجمع الأموال وتوفير الأدوية والمؤونة للمجاهدين، وقد حاولت السلطات الاستعمارية بكل الوسائل مطاردتها وإلقاء القبض عليها، ولم يتمكن العدو من معرفة نشاطها ودورها في الإعداد للثورة.
خلفت "أبو القاسم العليوي" عندما استشهد في قيادة الجيش الجزائري في شرشال في الحرب ضد المستعمر، وبعد عملية تمشيط واسعة النطاق، وقعت الشهيدة في قبضة العدو، حيث اعتقلها الجيش الفرنسي في 15 أكتوبر 1957، وتم تعذيبها 10 أيام دون إنقطاع، تم ربطها في سيارة عسكرية كما هو في الصورة وجرها وتعذيبها أمام الملأ لترويع الشعب وكان ينادى في الشعب بأن كل من يتمرد على فرنسا هذا هو جزاؤه وأن فرنسا لن ترحم أحدا ولو كن نساء إلا أنها صبرت صبر أيوب ولم تبح بكلمة فكانت أسطورة التاريخ وكانت تصرخ بأعلى صوتها " يا الخاوة أطلعوا للجبل أطلعوا الذي كان مكلف بالبحث عنها وكذا بتعذيبها، فقال قولته "Costa" للجبل"، أبهرت جلادها المحافظ "الشهيرة " ما نوعية هذا الشعب حتى تكون نساؤه من هذه النوعية.
تم إعدامها رميا من طائرة هيليكوبتر في 25 أكتوبر .1957

فضيلة سعدان الشهيدة



ولدت فضيلة سعدان سنة 1938 بمدينة قصر البخاري ولاية المدية، بعد سنتين من ميلادها توفي أبوها فانتقلت إلى الحروش قرب قسنطينة، تعلمت منذ نعومة أظافرها حب الوطن فلم تقبل رؤية

الفرنسيين الطغاة يحتلون بلدها الحبيب ويشرّدون أطفاله ويجوّعون شعبه، فكانت تكبر ويكبر معها إيمان بتخليص شعبها من مأساته القاسية.

في عام 1957م وبعد خروجها من السجن سافرت إلى فرنسا لتقيم عند أقاربها هناك، حيث أكملت دراستها الثانوية فتحصلت على شهادة البكالوريا بتفوق، وفي عام 1958م سجن الفرنسيون أختها "مريم سعدان" فعادت إلى أرض الوطن وأصبحت فدائية بجيش التحرير الوطني، في 17 جوان سنة 1960 تمت محاصرتها من طرف الفرنسيين هي ونفر من رفاقها المقاومين الثوار ، في منزل قرب قسنطينة، حيث تم تفجير المنزل بمن فيه فسقطت شهيدة ممزقة الى أشلاء.



صورة للمناضلات الجزائريات من اليسار الى اليمين :سامية لخضاري رحمها الله – زهرة ظريف – جميلة بوحيرد – حسيبة بن بوعلي رحمها الله



الشهيدة بن سليمان الهوارية

الشهيدة بن سليمان سعدية

الشهيدتان الأختان : بن سليمان

الشهيدة بن سليمان هوارية (1935- 1957)

ولدت في 1938 بوهران ونشأت في أسرة ميسورة الحال من مدينة معسكر وكانت منذ طفولتها مشبعة بالمبادئ الوطنية بفضل محيطها وكان أبوها مناضلا نشيطا في حزب الشعب الجزائري،وعضو بجمعية العلماء الجزائريين (جمعية الفلاح) قسم وهران.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية انضمت إلى الخلايا السرية تحت قيادة "العتروس" عام 1957 وقامت بعدة عمليات فدائية اشهرها بحي بلاطو في يوم 14 جويلية 1957،وبعد هذه العملية التحقت بصفوف الجيش التحرير برفقة الإخوة تينارات وبن محمد قويدر.

وفي بداية شهر سبتمبر من عام 1957 شاركت في عدة أعمال فدائية ضدّ الأوروبيين ولعبت دورا فعالا في نقل الأسلحة.

حتى سقطت في ساحة الشرف بحي "ستي بوتي" حي البدر حاليا بشارع دمشق برفقة الشهيد تينازات الطاهر،وهما حاملين السلاح وكان ذلك في 13

سبتمبر 1957 على الساعة الرابعة صباحا.
رحمهما الله رحمة الشهداء الأبطال الأبرار الأحرار.

.
الشهيدة بن سليمان سعدية (1937-1961)

ولدت سعدية المدعوة" نصيرة " في 01 جانفي 1937 بوهران وهي أصغر من أختها الهوارية بعامين عرفت بين زملائها بالجد والنشاطات وحب العمل وخدمة مصلحة الوطن.
وبعد ذلك تزوجت مع السيد بن دوخة الصادق الذي سقط شهيدا إثر معركة ضد المستعمر الفرنسي بمنطقة (06)عام .1957
وفي عام 1960 انضمت إلى خلية جبهة التحرير الوطني لمدينة وهران وبحكم تكوينها في سلك التمريض فكانت تنتقل بين مختلف المراكز الصحية لجيش التحرير الوطني ،إلى أن سقطت البطلة "نصيرة" يوم 28 مارس 1961 إثر شباك ضد الجيش الفرنسي بهدف أن تحيا الجزائر حرة كريمة.
الهوارية وسعدية) أطلق اسم إكمالية أخوات)وتخليدا لإسم أخوات بن سليمان بوهران كما سمي بإسمهم شارع بوسط "بن سليمان قرب ثانوية "الحياة المدينة الذي يبدأ من شارع خميستي ويمر على عيادة الولادة (سانتان) وينتهى إلى غاية مديرية سونلغاز والمسماة حاليا باسم الشهيدة نوار فضيلة.

إحصائيات لمشاركة المرأة الجزائرية في الثورة برؤية غير منصفة !

مع انطلاق شرارة الثورة الجزائرية لبت المرأة النداء فساندت أخاها الرجل و آزرته خاصة بعد انعقاد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 الذي اشاد بدور المرأة البطولي """ اننا نحيي و باعجاب و تقدير ذلك المثل الباهر الذي تضربه الفتيات و النساء و الزوجات و الأمهات في الشجاعة الثورية ...... اننا نحيي جميع أخواتنا المجاهدات اللواتي يشاركن بنشاط كبير و بالسلاح أحيانا في الكفاح المقدس لتحرير وطننا .... " و بهذه الجملة يتأكد لنا أن حضور المراة إبان الاحتلال كان قويا و لكن قوة تلك المشاركة تبقى محدودة في الكتابة التاريخية .

و توجد إحصائية أعلنت عنها وزارة المجاهدين سنة 1974 تؤكد أن عدد المجاهدات اللواتي شاركن في الثورة من خلال الملفات المعتمدة بلغت حوالي 10949 مجاهدة اي ما يعادل 3.25 % منهن 9194 مدنية و 1755 عسكرية إلا ان هذا الرقم يظل محل استغراب حيث يكون من المفروض انه ارتفع اكثر من ذلك .

و من هذا الجانب لا ننكر ان الاقلام التاريخية الفرنسية ساهمت في تدوين تاريخ الجزائر لكن يبقى السؤال مطروح هل لنا الاعتماد على هذا التدوين ؟ أم هل هو

موضوعي ؟ و بالرغم من ذلك فان العديد من الباحثين في مجال التاريخ يعتمدون عليها بشكل كبير جدا ، و بهذا الصدد كانت احدى الباحثات الغربيات قد قدمت بعض الاحصائيات حول عدد المشاركات في الثورة الجزائرية حيث رأت أن " نسبة 25 % فقط من النساء مقارنة مع الرجال مسجلات كقدماء محاربات أو مجاهدات مع الاشارة ايضا بان هذه النسبة تمثل عدد قليل من النساء الريفيات ممن شاركن في الثورة التحريرة . اما مجموع المسجلات فالعدد المقدم هو 94910 امراة نجد 1949 صنفن كمدنيات ، و 1755 شاركن في النظام المدني لجبهة التحرير الوطني و 19 % فقط صنفن كجنديات اما نسبة 78 % عملن في الارياف و 20 % عملن في المدن " .

هي مجهودات قدمت ، الا أن الرقم الصحيح و الذي من الصعب أن يدون لعدة اعتبارات سيظل مفقودا .



نماذج من خنساوات الجزائر

دعمن الثورة بقوافل الشهداء ومجاهدات ثائرات في الجبال والمدن
خنساوات الثورة.. شجاعة استثنائية وصمود أسطوري



فاطمة لوصيف ومريم بوعتورة وزيزة مسيكة ومريم عجرود وحسوني مهنية... نماذج خالدة

تحتفظ ذاكرة الثورة التحريرية بصور مشرفة حول مساهمة المرأة الأوراسية مع أخيها الرجل في البطولة والتضحية من اجل الوطن، حيث أن العديد من جميلات الجزائر كانت أصولهن من منطقة الأوراس، على غرار مريم بوعتورة التي استشهدت في قسنطينة، وزيزة مسيكة التي نالت الشهادة في القل، والكلام ينطبق على فضيلة سعدان، والمجاهدة فاطمة لوصيف التي اختارت حياة الجبل قبل وأثناء الثورة رفقة زوجها الشهيد الصادق شبشوب

ضمن مجموعة متمردي الشرف، وكذا المجاهدة بوذن أم السعد التي فتكت بضابط فرنسي دفاعا عن الشرف، دون أن ننسى نماذج لأمهات مجاهدات ضحين بالنفس والنفيس، وقدمن شهداء بالجملة من أجل تحرير الجزائر، على غرار خنساء الأوراس مريم عجرود، ومثيلتها حسوني مهنية، وأخريات كثيرات يصعب حصرهن في هذا الإطار.

مريم بوعتورة.. الأوراسية التي حطمت كبرياء المستعمر

شهدت الثورة التحريرية بطلات ثائرات في الأرياف والجبال والمدن، ومناضلات ومسبلات وحاملات للسلاح، حيث يصف الكثير الشهيدة مريم بوعتورة بالمرأة التي حطمت كبرياء فرنسا، حيث نشأت في بيت عريق بمدينة نقاوس بمنطقة الأوراس، بين 8 إخوة وأخوات، وعندما بلغت ربيعها العاشر (من مواليد 1938)، انتقلت رفقة عائلتها إلى مدينة سطيف، هربا من مضايقات العدو الفرنسي، بعد أن ثبت تورط بعض من أفراد العائلة والأقارب، في انتفاضة 8 ماي 1945، والتحقت البطلة مريم بوعتورة بالثورة سنة 1956 على مستوى الولاية الثانية، وساهمت في عدة عمليات فدائية، وأبانت عن شجاعة نادرة، وكانت آخر هذه العمليات الفدائية تلك التي نفذتها إلى جانب الشهيد حملاوي ضد المؤسسات والمنشآت العسكرية ومراكز الشرطة لقتل الخونة. وتم اكتشافهما بعد الوشاية بهما، حيث لجأ الإثنان إلى أحد المنازل الذي حوصر من طرف الجيش الفرنسي، قبل أن يقدم على نسفه بالديناميت، لتسقط المجاهدة مريم بوعتورة شهيدة الوطن يوم 08 جوان 1960

زيزة مسيكة.. تخلت عن الجامعة واختارت الجبل لخدمة الثورة



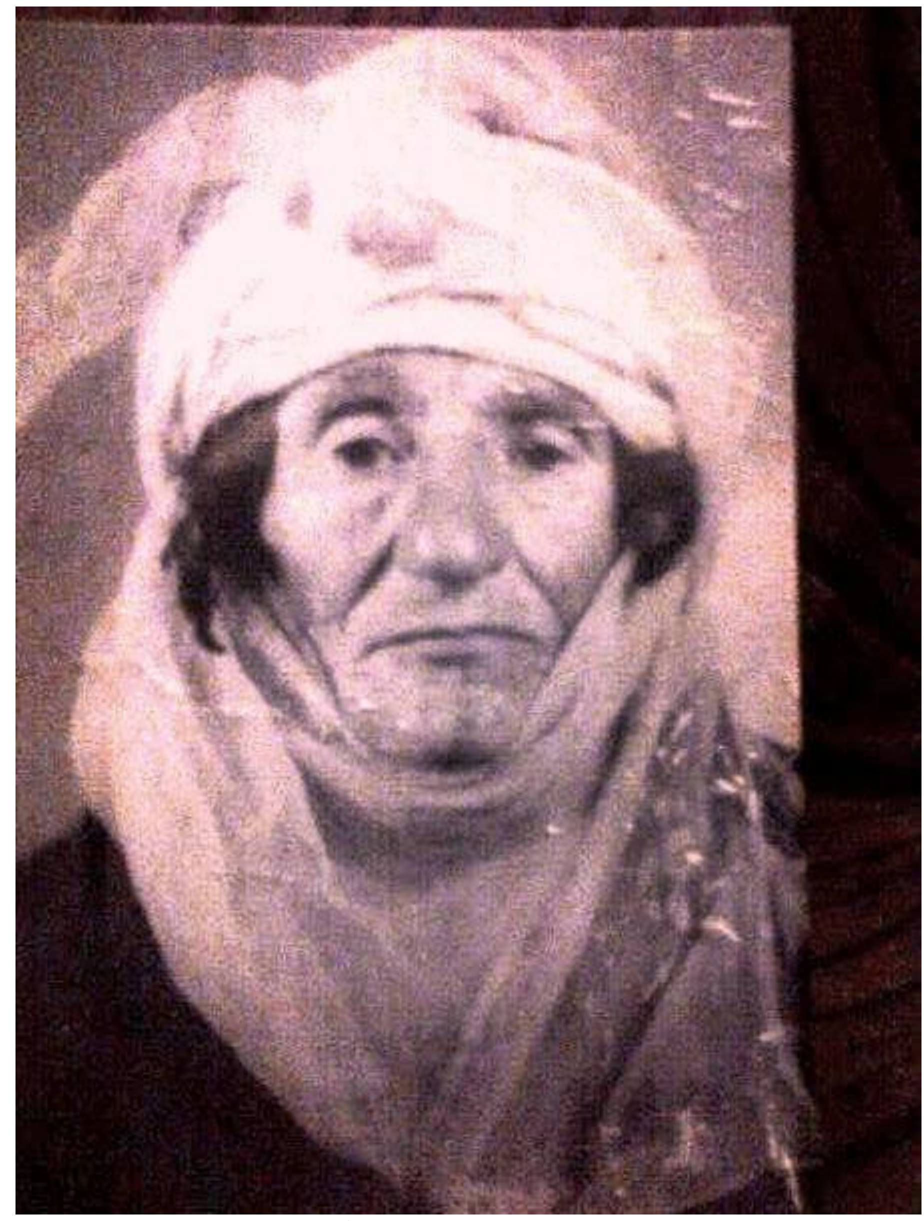
وغير بعيد عن مدينة نقاوس، فإن مدينة مروانة أنجبت بطلة من طراز خاص، ويتعلق الأمر بالشهيدة زيزة مسيكة (اسمها الحقيقي زيزة سكينة) التي عرفت بأعمالها البطولية خلال ثورة التحرير، حيث سقطت في ميدان الشرف يوم 29 أوت 1959، حين قامت بعملية استشهادية، وهي من مواليد 28 جانفي 1934 بمروانة باتنة، وتابعت دراستها الابتدائية في باتنة، ثم تنقلت إلى سطيف لمزاولة التعليم المتوسط، لتعود إلى باتنة لمواصلة دراستها الثانوية، حيث تحصلت على شهادة البكالوريا في عام 1953. وغادرت الجزائر متجهة نحو جامعة مونبلييه بفرنسا لمتابعة الدراسات العليا رفقة أخيها إلى غاية 1955، ثم عادت إلى أرض الوطن، وبالتحديد إلى مدينة باتنة، وقبل وقت قصير من الإضراب الطلابي في عام 1956، وقد غادرت باتنة إلى سطيف مع زميلتيها مريم بوعتورة وليلى بوشاوي، حيث انضمت إلى صفوف المجاهدين كممرضة برتبة عريف بواد عطية في دوار أولاد جمعة تحت أوامر عمار بعزيز في المنطقة الثالثة، كما عملت مع عزوز حمروش وعبد القادر بوشريط اللذان كانا مسؤولين عن الصحة بالمنطقة الأولى الثانية، تحت أوامر لمين خان من 1956 إلى 1958، والدكتور محمد تومي بين 1958 و1962 على التوالي.

وفي السياق ذاته، تحتفظ ذاكرة الثورة التحريرية ببطولات الشهيدة مريم سعدان، ابنة وادي الماء بمروانة، وشقيقتها فضيلة سعدان، حيث استشهدتا بعد مسيرة مميزة في التضحية ونكران الذات.

فاطمة لوصيف حملت السلاح قبل الثورة بـ7 سنوات

وتحتفظ منطقة الأوراس بنموذج استثنائي، ويتعلق الأمر بالمجاهدة فاطمة لوصيف التي حملت السلاح وصعدت إلى الجبل قبل 7 سنوات عن موعد اندلاع الثورة التحريرية، وكانت أفضل سند لزوجها الشهيد البطل الصادق شبشوب (الملقب بـ: قوزير)، حيث كانت منضوية تحت لواء مجموعة متمردي الشرف، وكانت من الرعيل الأول للثورة رفقة زوجها شبشوب، بعد ما أبلت البلاء الحسن في منطقة الأوراس قبل أن تتحول إلى الولاية السادسة (الصحراء) تحت إشراف سي الحواس، ثم العقيد شعباني، حيث برزت في عدة معارك مشهود لها، في مقدمة ذلك معركة بوكحيل الشهيرة بجبال الجلفة.
وإذا كان زوجها الصادق شبشوب قد استشهد نهاية شهر أكتوبر 1961 بنواحي نقاوس، حين قام بزيارة رفاقه في السلاح بمنطقة الأوراس قادما من الولاية السادسة (الصحراء)، فإن المجاهدة فاطمة لوصيف عاشت فترة هامة من الاستقلال، وتوفاها الأجل مطلع الألفية الحالية.
كما يمكن إدراج اسم المجاهدة الراحلة عثامنة عمرية (المدعوة زينب) من منطقة إشمول بباتنة، التي تعد خريجة عائلة ثورية، فوالدها امحند عثامنة كان مجاهدا، والكلام نفسه ينطبق على شقيقها محمد عثامنة.

مريم عجرود.. نموذج لأبرز خنساوات الأوراس والجزائر



وسجل تاريخ الثورة التحريرية نساء بطلات يمكن وصفهن بخنساوات الأوراس والجزائر، وتعد المجاهدة مريم عجرود في نظر سكان منطقة خنشلة، ملهمة الأبناء على الجهاد ومستقبلة خبر استشهادهم بالزغاريد، حيث تعتبر من مواليد 1891 بمنطقة طويلة أعمارة ببلدية المحمل ولاية خنشلة، تزوجت من المرحوم لمبارك عجرود (وهو من أبناء عمومتها)، وذلك عام 1906، وأثمر زواجهما 9 أبناء وهم النوي وعبد القادر والحاج والسقني ومحمد وثلجة وعلي وشهلة وأصغرهم هو صالح، وأن تربيهم على حب الأرض، وبعد وفاة زوجها عام 1936، تحملت السيدة مريم عجرود مسؤولية تربية أبنائها السبعة لتفجع في أكبرهم النوي سنة 1942 بموته في ألمانيا أثناء

الحرب العالمية الثانية، خلال أدائه الخدمة العسكرية مع الجيش الفرنسي، ونظرا لمواسم القحط والجفاف وانتشار الفقر في تلك السنوات، فقد انتقلت السيدة مريم عجرود إلى ضواحي هيليوبوليس بقالمة، واستقرت هناك من عام 1944 حتى عام 1951 تاريخ عودتها إلى مسقط رأسها، ورغم أمية السيدة مريم عجرود إلا أنها كانت مؤمنة بوجوب كفاح المستعمر، فشجعت أبناءها الستة على الالتحاق بالثورة وخدمتها بكل غال ونفيس، وخلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الثورة توالت عليها أخبار استشهاد أربعة من أبنائها، وهم الشهيد عجرود الحاج (من مواليد العام 1920) الذي يعد من الرعيل الأول الملتحقين بالثورة، حيث استشهد عام 1957 في معركة جمري بمنطقة طامزة، ثم الشهيد عجرود السقني (من مواليد عام 1924)، وكان من الملبين الأوائل لنداء الوطن، واستشهد عام 1956 بجبال منطقة حمام دباغ بولاية قالمة، وفي عام 1955 استشهد ابنها عجرود محمد (من مواليد عام 1927) في معركة الجرف الشهيرة، ثم الشهيد عجرود علي (من مواليد عام 1929) الذي استشهد على يد القوات الاستعمارية عام 1956 بمنطقة حمام لكنيف.

حسوني مهنية.. زوجها و5 من أبنائها التحقوا بقوافل الشهداء

من جانب آخر، تحتفظ ذاكرة الثورة الجزائرية بخنساء أخرى رفضت الانكسار أمام العدو، ومنحت الجزائر أبطالا رزقوا الشهادة، ويتعلق الأمر بالمجاهدة حسوني مهنية (من مواليد 1904 بنواحي بسكرة)، حيث استشهد زوجها حسوني إبراهيم عام 1955 بلقصر أولاد أيوب عن عمر يناهز 54 سنة، قبل أن يلحقه 5 من أبنائها، ويتعلق الأمر بحسوني عمار (من مواليد 1935) بنواحي الدروع بشتمة بين أريس وبسكرة، وفي عام 1960 رزق حسوني محمد إبراهيم الشهادة بجبل أحمر خدو في ربيع الـ19 سنة من العمر، واستشهد البطل حسوني إبراهيم (من مواليد 1931) عام 1961 ببوكحيل (نواحي الجلفة)، علما أن هذا الأخير كان قبل الثورة ضمن مجموعة الخارجين عن القانون، ويعد من الرعيل الأول للثورة، وفي نفس العام استشهد

حسوني عبد الله (من مواليد 1933)، بمنطقة لحبال قرب منطقة مشونش بين أريس وبسكرة، وكذا حسوني محمد (من مواليد 1942) الذي سقط في ميدان الشرف قبل عام عن نيل الاستقلال .



بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة تعريفية لأم 5 شهداء وزوجها

الأبناء 5 شهداء الثورة التحريرية

1954 - 1962

خنساء" الأوراس التي أشرفت على توليد 400 امرأة في نڨاوس بباتنة"



خيّم،يوم : 19 / 7 / 2017 حزن عميق على سكان دائرة نقاوس بولاية باتنة بعد وفاة المعمرة «حدة بن عطير» عن عمر زاد عن القرن بـ3 أشهر، إذ يعود تاريخ ميلادها إلى يوم 17 أفريل 1914، وقد انتشر خبر وفاتها بسرعة كبيرة

نظرا للصيت الواسع الذي حققته المرحومة، بعد عقود من الزمن قضتها كقابلة متطوعة أشرفت خلالها على توليد ما لا يقل عن 400 امرأة، وإلى جانب هذا العمل الإنساني فإن المرحومة كانت تلقب بـ«خنساء» الأوراس، منذ سنة 1957 تاريخ المعركة الطاحنة التي قادها الشهيد عزيل عبد القادر البريكي ضد قوات المستعمر الفرنسي، وشاركت فيها المرحومة رفقة زوجها و3 من أبنائها، حيث أبلوا جميعا بلاء حسنا في معركة انتهت باستشهاد الزوج والأبناء الثلاثة جنبا إلى جنب، أما هي فقد كانت أمعاؤها خارج بطنها نتيجة إصابة خطيرة لحقت بها خلال المعركة، لكن ذلك لم يمنعها من التنقل بين الأبناء والزوج من موقع إلى آخر في ميدان المعركة محاولة تقديم الإسعافات لهم، إلى أن نالوا شرف الشهادة، وكتبت لخالتي «حدة» حياة جديدة سخّرتها لفعل الخير، مع نضال مضنٍ جديد تمثل في كفاح دام نصف قرن لم يشفع لها في انتزاع شهادة الاعتراف كمجاهدة، رغم أنها نجحت بعد جهاد دام 7 سنوات ونصف من نيل الاستقلال .

المجاهدة "نانا" علجية بن عرفة بتبسة

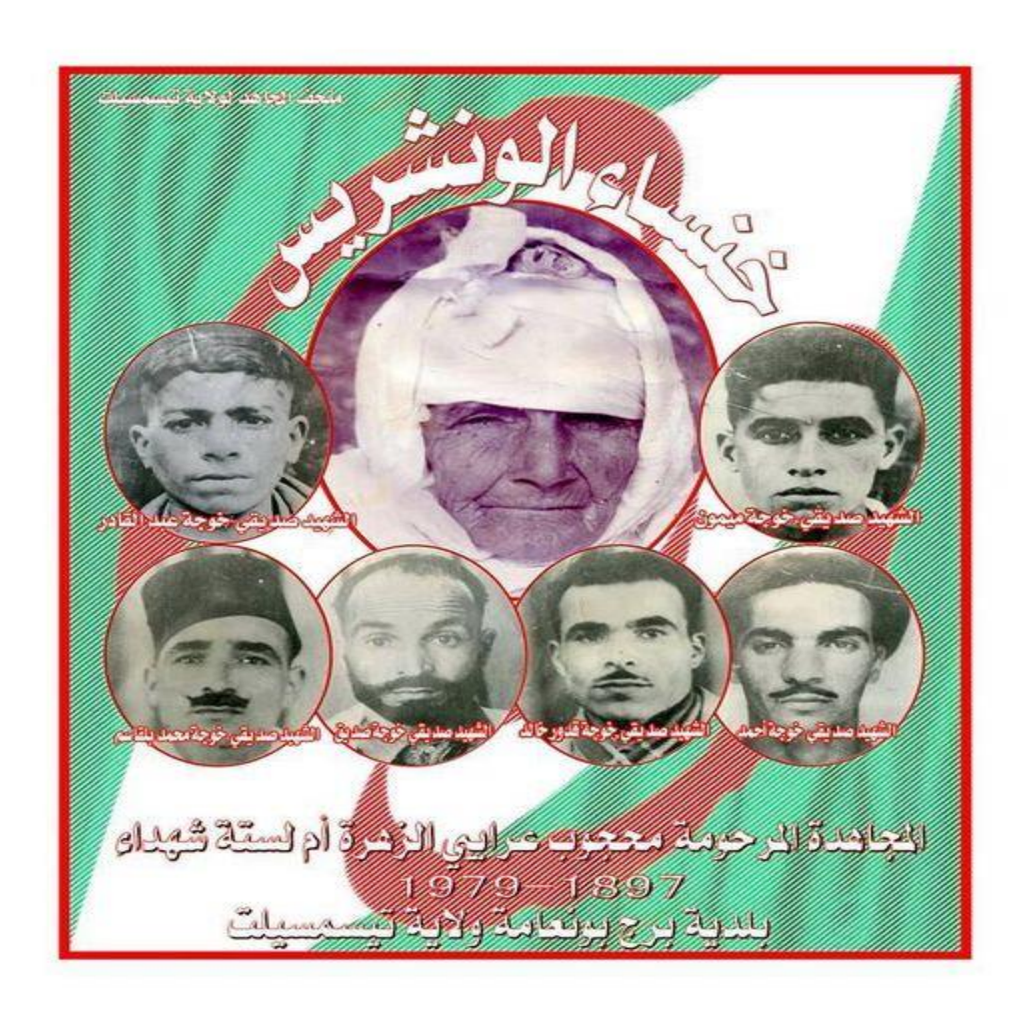


قامة أخرى من قامات ولاية تبسة في الجهاد و البطولة، تسقط و تغادرنا إلى دار الخلد، في يوم تحتفل فيه الجزائر بعيدها الـ55 لاسترجاع السيادة الوطنية، إنها نانا علجية، خنساء تبسة التي تعتبر أكبر مجاهدة في حدود المعلومات المتوفرة، عن عمر يناهز 106 سنوات.

نانا علجية بن عرفة المجاهدة التي يناديها الجميع بهذا الاسم الذي تحبه كثيرا، أرملة الشهيد الصنديد علي بن عرفة، الملقب بـ «علي فرعون »، الذي أرعب قوات الاحتلال الغاشم ببطولاته الخارقة، و أم الشهيدين محمد بن عرفة الذي استشهد في سن 18 سنة، و الحي مبروك بن عرفة، إنها المجاهدة الصنديدة التي فقدت خلال حياتها بعد الاستقلال ابنيها عبد الحميد و بوجمعة لتلتقيهم جميعا بعد وفاتها، حين تجتمع أسرة الشهداء الثوار الأحرار عند خالقهم... نانا علجية أيقونة لا تعوض من أيقونات التاريخ، غادرتنا و قصة كفاح شعبنا الأبي و ولاية تبسة التاريخية المجاهدة تنتظر التدوين، و يبقى الأمل في حفيدها الدكتور إبراهيم بن عرفة الرجل السامق في تدوين تاريخها المشرف، و كل العائلة المجاهدة، لتقرأه الأجيال ، وتستلهم منه العبر و المواقف الجليلة، من أجل الحفاظ على جزائر الشهداء .

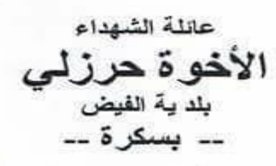
محجوب عرابي الزهرة

كانت نموذج المرأة الصابرة المحتسبة و هي أم لستة شهداء سقطوا في معركة الشرف ، ولدت سنة 1897 حيث عركتها الحياة الشاقة التي كان يصادر فيها الاستعمار كل شيء جميل ، تحملت المصاعب و ربّت على الفضيلة ، و استمرت على زهدها و بساطتها حتى توفيت سنة 1973 ،هؤلاء الستة من عائلة صديقي خوجة : ميمون و عبد القادر و أحمد و قدور خالد و محمد بلقاسم و صديق ، رحمهم الله و أسكنهم فسيح جناته .



المجاهدة عيساوي علجية

كانت تتقاسم هموم الحياة رحمها الله مع المجاهد المرحوم حرزلي بلقاسم المتوفى سنة 1983 ، ولدت مع سياسات الحصار التي فرضها المستعمر الغاشم سنة 1900 ، و ظلت تكابد أجواء المستعمر تنافح في تربية أولادها حتى سقطوا في ميدان الشرف ، إنها (خنساء الجزائر) أم الشهداء الخمسة : النوي و شعبان و الجموعي و مسعود و حرزلي .. تغمدهم الله برحمته الواسعة .



عائلة الشهداء

الأخوة حرزلي

بلد ية الفيض

-- بسكرة --



المجاهدة عيساوي علجية

أم الشهداء 1900–2002



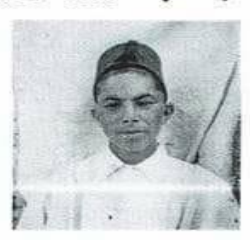
المجاهد حرزلي بلقاسم

أب الشهداء 1890 –1983



الشهيد حرزلي النوي

(1934 – 1959)



الشهيد حرزلي شعبان

(1940 – 1960)

الشهيد حرزلي الجموعي

(1936- 1960)



الشهيد حرزلي مسعود

(1934-1959)



الشهيد حرزلي حرزلي

(1926-1958)

خنساء الثورة الجزائرية و زوجها المجاهد حرزلي بلقاسم و أبناءها
الشهداء الخمس الإخوة حرزلي

المجاهدة زوليخة عدي ... خنساء أخرى



نعرف لالة فاطمة نسومر و نعرف جميلة بوحيرد .... فهل نعرف المجاهدة الشهيدة الجزائرية زوليخة عدي:

زوليخة عدي إسمها الحقيقي (يمينة الشايب)،

ولدت الشهيدة في 7 ماي 1911 بحجوط، ونشأت وكبرت في مدينة شرشال، وهي من عائلة مناضلة، قدمت قوافل من الشهداء.
عاشت مرحلة الطفولة كغيرها من الشباب الجزائري في ظل الاستعمار، وحياة الظلم والفقر المسلط على رقاب الجزائريين، بعد الظلم والاضطهاد والتعسف والجهل والمرض.

فقد اضطرت المناضلة يمينة إلى البحث عن العمل واختارت عن قناعة وإيمان درب الجهاد

أين تمكنت الشهيدة في هذه الظروف أن تساهم بفعالية في تشكيل خلايا جديدة في هذه الفترة، ولم يقتصر نشاطها على مدينة شرشال وحدها، بل استطاعت أن تكون خلية في القرى من مناضلات وكان نشاط الشهيدة محل ملاحقة واهتمام من طرف رجال الأمن الفرنسيين، إلا أن شدة كتمانها للسر وحنكتها وذكائها جعلهم يعجزون عن كشف المهام التي كانت تقوم بها وكانت تتمتع بثقة كبيرة لدى المجاهدين، كان لها دور ريادي في نشر الوعي الوطني وإفشال مخططات (ASS) لكسر شوكة الثورة وعزلها عن الشعب، وخاصة في الأرياف المجاورة لمدينة شرشال.

كانت تقوم بجمع الأموال وتوفير الأدوية والمؤونة للمجاهدين، وقد حاولت السلطات الاستعمارية بكل الوسائل مطاردتها وإلقاء القبض عليها، ولم يتمكن العدو من معرفة نشاطها ودورها الحقيقي في الإعداد للثورة..

التحقت بصفوف الثورة في جبل (سيدي سميان) لتواصل كفاحها وقامت بواجبها وجاهدت بالمنطقة الرابعة

خلفت أبو القاسم العليوي عندما إستشهد في قيادة الجيش الجزائري في شرشال في الحرب ضد المستعمر، وبعد عملية تمشيط واسعة النطاق، استهدفت جبال (بوحرب) و(سيدي سميان) وبالتحديد وقعت الشهيدة في قبضة العدو. أعتقلها الجيش الفرنسي في 15 أكتوبر 1957، و تم تعذيبها 10 أيام دون إنقطاع قبل أن يتم إعدامها رميا من طائرة هيليكوبتر في 25 اكتوبر 1957 تم ربطها في سيارة عسكرية كما هو في الصورة وتم جرها وتعذيبها أمام الملأ لترويع الشعب وكان ينادى في الشعب بأن كل من يتمرد على فرنسا هذا هو جزاءه وأن فرنسا لن ترحم أحدا ولو كن نساءا إلا أنها صبرت صبر أيوب ولم تبح بكلمة فكانت أسطورة التاريخ فكانت تصرخ بأعلى صوتها " يا الخاوة أطلعوا للجبل أطلعوا للجبل" منذ أن رميت من الهلكوبتر لم يظهر على جثتها اي خبر حتى سنة 1984 تكلم احد الشيوخ الذي كان فلاحا وقت الإستعمار بأنه في يوم من أيام سنة 1957 وجد إمرأة مهشمة في طريقه فحملها ودفنها ودلهم على مكانها فلما حفروا وجدوا بقايا عظام إمرأة والعجيب أنهم وجدوا بقايا من فستانها الذي أعدمت به وتم التعرف عليها .

أصابها "الجنون" من هول التعذيب على يد الجيش الفرنسي

خيّاطة أعلام الثورة..تعيش منسية "بزنزانة" بالبليدة

المجاهدة عيسى فاطمة الزهراء



موجع منظر المجاهدة عيسى فاطمة الزهراء"84 سنة" من البليدة، وهي تهوم في الشارع وتلتحف العلم الوطني لتأوي ليلا إلى زنزانة سقفها ترنيت، يحدث

هذا في وقت يُحضّر فيه المسؤولون للإحتفلال"ببذخ" بذكرى الثورة، متناسين حال المرأة التي نكل بها الفرنسيون إلى أن فقدت عقلها فجر ذات يوم من عام1960

تقف مصدوما وأنت تستمع لحكاية خالتي فاطمة وتاريخها الثوري وواقعها المر اليوم، فالزمن ورفقاء الجهاد لم ينصفوها وبقيت طي النسيان بعد خمسين سنة من الاستقلال، فهي ذاتها التي وُشي بها لأن كوخها الهش بمنطقة التراب لحمر ببوعرفة جنوب البليدة كان ورشة لخياطة الأعلام التي رفعها المتظاهرون بتاريخ 11 ديسمبر 1960، حيث تلقت أمرا من جبهة التحرير عن طريق ابنتها "زبيدة" ذات 12 سنة بخياطة كمية من الأعلام ، رسمت الطفلة شكلها على كراستها، وراحت ووالدتها تقتنيان أقمشة "الاتلاس" بألوانها الخضراء والحمراء والبيضاء من سوق باب الرحبة وتموهان العسكر الفرنسي خلال نقلها، إلى أن حُضّرت الطلبية وأُرسلت بها إلى مجاهدي الولاية الرابعة.

ليلة القبض على فاطمة

أياما بعدها استنفر جيش جرار من العسكر الفرنسي المتمركز بجبال الشريعة وأغلق منافذ بوعرفة عن كاملها، إنها ليلة القبض على"فاطمة"، حوصر بيتها وحامت فوقه طائرات العدو، ويومها ذاقت صنوف العذاب لـ 14 ساعة متواصلة، فصُلبت وصعقت بالكهرباء في مناطق حساسة من جسدها وما طفق حركي يُدعى "قدور" يضرب رأسها على الجدران بهستيرية إلى أن بدأت الحشرجات بالتصاعد، ولم يكتف جلادها برائحة جلدها المحروق وراح يخيرها بين الغدر بالثوار أو قتل"زبيدة" ابنتها الصغيرة، فأشارت عليه بقتلها، وكبّلت الصغيرة "ناقلة القنابل" بحبل وجلدت بخيزرانة وسحبت بالطريق على مرأى من الجيران وشوّه وجهها بـ"حربة" في محاولة "يائسة" لاستنطاقها...

مرت أشهر والمجاهدة "فاطمة" طريحة الفراش لا تقدر النوم على بطنها أو .. ظهرها من بشاعة الضرب الذي تعرضت له، ومن هول التعذيب والصدمة،

استفاقت يوما وقد خارت قواها العقلية وفقدت ذاكرتها وارتباطها بمحيطها، وأصبحت تعيش حنينا آسرا لخياطة "العلم" بل وجعلت منه عالمها.

فاطمة الزهراء بن مهيدي

أخت الشهيد و حكيم الثورة سي العربي



<u>فاطمة الزهراء بن مهيدي في حديث خاص لجريدة السلام :</u>

ـ كيف كانت علاقتك به؟

علاقتي الشخصية به كانت حميمية جدا، كان يكبرني بثلاث سنوات وظلّ يتميز بشخصية محبوبة ميزته جدا في العائلة، وبحكم أني كنت متزوجة ولي أطفال وكنت مقيمة وقتئذ في سطيف، كان يزورني أخي باستمرار وفي أوقات متأخرة من الليل، وتبعا لحسه الأمني واظب على ركوب القطار مختبئا وسط فرقة موسيقية كانت ترافقه دائما حتى لا ينكشف أمره، خصوصا بعدما اكتشفت فرنسا (تورطه) في هجمات طالت معاقلها في العديد من المناطق، ولا أخفي عليكم أنّه كان يستغل بيتي لإجراء اتصالات كثيرة مع مجاهدين، بجانب عقده اجتماعات سرية مغلقة لا نرى أيا من المشاركين فيها، وكانت هذه ميزة العمل السري للثورة، ولم ينقطع أخي العربي عن زيارتي إلا بعد أن دخلت الثورة مرحلة حاسمة، حيث اضطر العربي إلى قطع كل الاتصالات، لكن كانت تصلنا أخباره بانتظام ونتلقى بسرور بالغ أصداء الأعمال الفدائية التي كان ينفذه رفقة الثوار.

ـ هل كان العربي هو الشهيد الوحيد للعائلة؟

لم يكن العربي هو الوحيد، بل شقيقي الأصغر «الطاهر» استشهد أيضا وكان سنه لا يتعدّى 23 سنة في معركة على الحدود التونسية الجزائرية، علما أنّه كان طالبا في جامعة الجزائر المركزية وكان يشبه العربي في حماسه وعزيمته، وبعد تلبيته لنداء الطلبة الجزائريين سنة 1958، سافر إلى تونس وهناك سقط في ساحة الشرف، والكثير من الجزائريين لا يعرفون أنّ عائلة بن مهيدي أنجبت شهيدين.

ـ هل تتذكرين اليوم بعض الشهداء الأبطال الذين كانوا يترددون على بيتك رفقة العربي بن مهيدي؟

أذكر فقط عبان رمضان، والآخرون لم أشاهدهم، لأننا لم نشاهدهم قطّ وإن كنت رأيتهم فأكيد في زي متنكر، وكنا نكتفي بخدمتهم بالقهوة والشاي وتحضير الطعام، وأشير هنا إلى ارتباطنا بعلاقات نسب مع العديد من الأسر الثورية، على غرار عائلتي بوضياف وبوصوف.

ـ الكثير من الملابسات ما تزال قائمة حول حقيقة استشهاد العربي بن مهيدي، هل بحوزتك معلومات بهذا الشأن؟

فرنسا حاولت درء جريمتها، وسعت بكل الطرق أن تُقنع الجزائريين أو على الأقل الرأي العام في تلك الفترة بأنّ العربي قام بشنق نفسه، لكن كل بصمات جريمتها كانت موجودة على جثة أخي «العربي»، ذلك أنّ الرئيس الأسبق أحمد بن بلة، لما أمر بعد الاستقلال بتحويل جثامين الشهداء إلى مقبرة العالية وبحضور زوجي المرحوم وزوج أختي ظريفة، قمنا بمعاينة جثمان العربي، فوجدنا آثار شنق وطلقات رصاص على مستوى الرأس، ما جعلنا نجزم بأنّ شقيقي شُنق قبل أن يغتال رميا بالرصاص، وحتى الجنرال السفاح أوساريس اعترف في مذكراته أنّه تلقى تعليمات من قيادته العسكرية آنذاك، بضرورة تصفية العربي بن مهيدي واغتياله لما ظلّ يشكله من خطر كبير على الإدارة الكولونيالية، ولم تشأ حكومة فرنسا النظر في ملف الدعوى المرفوعة لدى العدالة لمحاكمة المسؤولين عن اغتيال شقيقي، وتذرعت باريس بإصدارها العفو التام على كل أعمال جلاديها إبان الثورة.

احكي لنا عن شخصية العربي بن مهيدي التي لا يعرفها الكثير من الجيل الجديد؟

العربي لم يكن ثوريا فقط بل كان يعيش حياته الخاصة بكل حيثياتها، إذ كان شابا مفعما بالحيوية، طموحا محبا للحياة ومغامرا، كما كان متدينا يحافظ على واجباته في العبادة برغم التزاماته الثورية، كان يلقبه زملاؤه بـ»الحكيم» لوسطيته، إذ كان دائما يتدخل لفك النزاعات وإزالة الشوائب، وتقديم المشورة، كان يحب المسرح وخاصة السينما، كان رياضيا وحمل ألوان نادي «الشباب الإسلامي لبسكرة»، ولم يمنع الكفاح من أن يكون العربي مواطنا متواضعا وبسيطا رغم انحداره من عائلة راقية، إلاّ أنّه رفض الفوارق التي قد يصطنعها البعض، كما أخبركم بأنّ العائلة خطبت للعربي عروسا لكنه لم يكن ير أهمية لأي ارتباط أو بناء بيت أسري، أمام قداسة القضية الوطنية، حيث استشهد العربي دون أن يتمّ نصف دينه.

وأحبّ هنا أن أوضّح بأنّ العربي كان له الأثر الكبير في دعم جيش التحرير المغربي، وهو ما تتحاشى السلطات المغربية الاعتراف به أو على الأقل ذكره، مع أنّ هناك أدلة تثبت ذلك.

هل فكرت العائلة في كتابة مذكرات العربي وتدوين تفاصيل حياته؟

لم نفكر في ذلك، لأننا حقيقة نمتلك معطيات عن العربي داخل محيطه العائلي، لكن مساره الثوري وكل الأعمال التي قام بها ما تزال غير معلومة بالكامل، ولا يعرفها سوى الأحياء الذين عايشوه في الجبال، أو من استشهدوا، علما أنّ كثير من رفقاء السلاح اختاروا البقاء في الظل والتكتم عن بعض الأسرار، بينما بذل زوجي «علي» رحمة الله، جهدا مميزا من خلال جمعه للكثير من المعلومات الخاصة بـ»العربي بن مهيدي» وتدوينه لها ضمن أرشيفه الخاص.

ـ ما هي أكثر الأشياء التي تذكّرك بالشهيد الرمز «العربي بن مهيدي» وما تزال حية في ذاكرتك؟

ليست المناسبات التي تحيي في نفسي ذكرى أخي العزيز ولا انتمائي لأي جمعية ما سيبعث في دواخلي ذكرى شقيقاي «العربي» و»الطاهر»، فهما حاضران في فؤادي دوما، ولم يفارقاني، بل

على العكس زاد استشهادهما من قوة حضورهما، وجعلني أعتز بانتمائي لهذه العائلة ويزداد هذا الشعور رسوخا أكثر كلما ذكرت أبنائي بذلك وأوصيهم بالخير دائما والإخلاص لهذا الوطن.

ـ عائلة بن مهيدي قدمت شهيدين لهذا الوطن، و»العربي» وحده بألف شهيد لشخصيته الفذة، فماذا نالت العائلة من هذا الوطن بعد الاستقلال؟

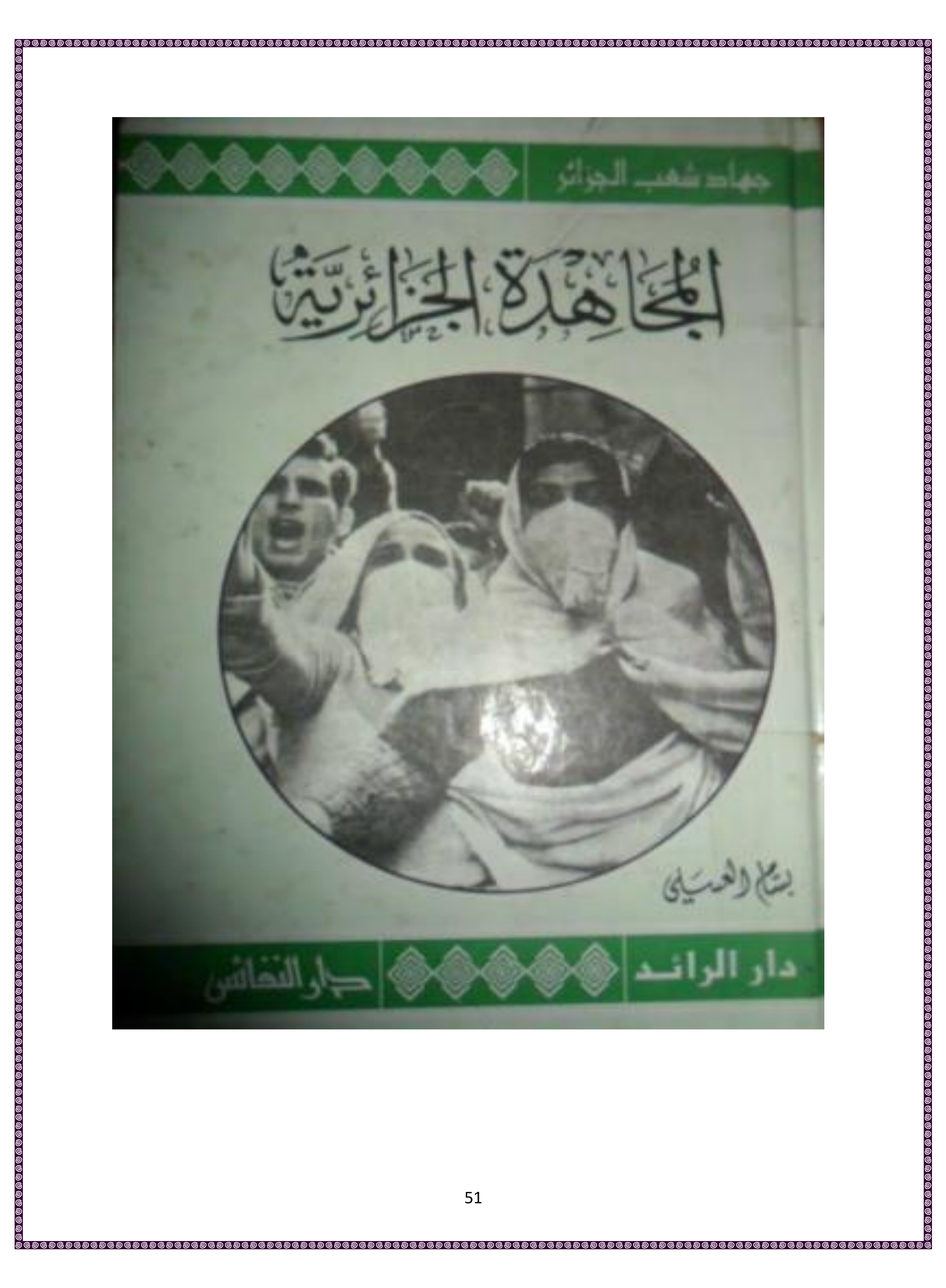
أتذكر هنا ما قاله لي أخي العربي جيدا أنّ المجاهدين يتلهفون لنيل الاستقلال ولا يحذوهم في ذلك سوى العيش بكرامة وفي كنف الحرية، ولذلك كانت عزيمته وإرادته القويتين ترعبان فرنسا، بالنسبة لما نالته عائلة بن مهيدي، يكفيها شرفها الكبير بتقديمها شهيدين فداء لهذا الوطن، ومن يقدر هذا بقيمته الحقيقية فلن ينظر أبدا لأي مقابل مادي مهما كان قدره، لأنه لن يعيد ولو 1 بالمائة مما قدّم العربي والطاهر على غرار كل أبناء هذا الوطن، الحمد لله أنا معززة في بيت زوجي «علي مرحوم» الذي كان من بين مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد استفادت والدتي بعد رحيل والدي «عبد الرحمن بن مهيدي» منزلا بصيغة يمكن للدولة أن تسترده بعد وفاة الوالدة، وأشير هنا إلى أنّه لم يتم تخصيص أي منحة للأرملة وأم الشهيدين التي كادت تفقد بصرها حزنا على فراق فلذتي كبدها، اللذين لم تر جثمانيهما وطال حزنها حتى لحقتهما سنة 1990.

ورغم كل ما تقدّم، نحن لا يهمنا أبدا هذا الجانب ولا نلوم أحدا، نحن من عائلة عريقة تنحدر من بساطة وشرف تكفينا لأن نعيش في عز وكرامة أبد الحياة.

ـ ما هي وصيتك للجيل الثالث للاستقلال اليوم؟

أعيد ترديد ما قاله أخي، إنّه لا بدّ دائما على الإنسان أن لا ينسى واجبه تجاه هذا الوطن مهما كانت مرتبتك فيه، وأن يكون مخلصا في كل شيء سيما في حب الوطن، ونتمنى أن يحفظ الله وطننا ونعيش دائما في أمن وسلام.

مقتطفات من كتاب : المجاهدة الجزائرية لبسام العسلي


جهاد شعب الجزائر
المجاهدة الجزائرية
بسام العسلي
دار الرائد
دار النفائس

١ ـ قصة (عقلية) وزوجها
(الملازم سي الأخضر)(*)

كانت (زمورة) في صيف سنة ١٩٥٩ خاضعة للاحتلال العسكري الإفرنسي . وقد نظمت القوات الإفرنسية أمورها على النحو التالي : تمركزت القوة الرئيسية في الثكنة الكبيرة بقيادة النقيب ـ الكابتن ـ (أموريك) . في حين احتل (المكتب الثاني ـ أو الاستخبارات العسكرية) بناء هو عبارة عن بيت قديم كان يقيم فيه القائد ثم أعيد إصلاحه ليفي بالمتطلبات التي يحتاجها رجال الاستخبارات . وقد تمركزت فيه وحدات فرنسية ، ووحدات من (الحركيين) واجبها الرئيسي هو القيام بدوريات ليلية لاعتقال المواطنين واستجوابهم وتعذيبهم بمختلف الوسائل : (بما فيها إرغام المعتقلين على شرب البترول وماء جافيل وتسليط الكهرباء على الأعضاء التناسلية والأجزاء الحساسة من الجسم) . وأخيراً كانت

(*) كاتب القصة هو (لقمان بن هيزيا) وقد وقعت أحداث القصة في قرية (زمورة) التي تبعد مسافة (٣٣) كيلومتراً عن (سطيف) . والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED ALGER. (1977) P. P 319- 328.

هناك (الوحدة الإدارية الخاصة)[1] ورمزها (س . آ . س) وهي تمارس دور عمدة الإقليم ، وتنافس المكتب الثاني أو الاستخبارات في مجال اضطهاد المواطنين وتعذيبهم . إذ كان أي مواطن مضطراً لسبب من الأسباب أن يلجأ اليها من أجل الحصول على وثيقة إدارية ، أو من أجل قضية روتينية ـ رتيبة ـ من أمور الحياة اليومية ، وعندها يجد أن موظفي هذه الوحدة غير متعجلين أبداً لمساعدته أو تسهيل مهمته ، وقد يجد النقيض من ذلك ، إذ أن هؤلاء الموظفين الجالسين وراء مكاتبهم ليسوا إلاّ عسكريين ينتظرون كل فرصة لإجراء استجواب دقيق مع من تعرض له حاجة للاحتكاك بهم ، فيطرحون عليه الأسئلة من كل نوع ، والتي لا علاقة لها أبداً بالقضية التي جاء المواطن يلتمس المساعدة من أجلها . وكان يرأس هذه الوحدة ملازم من أصل كورسيكي (اسمه سكاريانكي) سبق له أن عاش سنوات في المغرب ، وتعلم فيه اللغة العربية فكان يستخدم بعض العبارات (كلازمة أو متكأ) في حديثه للتظاهر بالبساطة ، عندما كان يتجول في الأسواق ويختلط بالناس ، على أمل الوصول إلى أسرارهم . غير أنه لم يكن من الصعب على القرويين البسطاء اكتشاف أمره ، والحذر منه ، إذ كانت لكنته الكورسيكية تفضحه عندما يحاول نطق اللغة العربية ، لا سيما عندما يقحم نفسه في حديث له أهميته ، ولم يبق على القرويين سوى التزام الصمت والتظاهر باللامبالاة عندما يتعرض لهم الملازم (سكاريانكي) .

وكان سكان قرية (زمورة) شأنهم شأن كل سكان القرى ، على

---

(١) الوحدة الإدارية الخاصة : SECTION. ADMINISTRATIVE SPECIALISEE ورمزها (S.A.S)

علاقة وثيقة بالثوار (الماكي) . وكان رجال الحركة (التابعين للقيادة الإفرنسية) يعرفون أن المجاهدين يترددون على القرية للتزود بالطعام والمواد التموينية . وقد رغب (الملازم سكاربانكي) إعادة تجميع القرويين الذين يسكنون البيوت المنعزلة في القرية ، غير أن سكان هذه البيوت رفضوا بدافع وطني الجلاء عن منازلهم أو إخلائها لأنها كانت تتيح لهم فرصة الاتصال بإخوانهم الثوار .

* * *

كان من بين سكان قرية (زمورة) فتاة جميلة تحمل اسم (عقيلة) وهي زوجة المجاهد (الملازم حمد الأخضر) تعارف الناس على مناداته باسم (سي الأخضر) واشتهر بإرباك الدوريات الإفرنسية وإزعاجها وتدميرها ، لا في الجبال فقط ، وإنما في داخل القرى أيضاً .

عرف الحركيون (أو رجال الحركة) بأمر الحب العاصف الذي يحمله (سي الأخضر) لزوجته . فعملوا فوراً على إخطار رجال المكتب الثاني (الاستخبارات) (والوحدة الإدارية الخاصة . س . آ . س) . ومنذئذ أصبحت (عقيلة) رازحة تحت عبء كابوس ثقيل ومرعب لا يحتمل ولا يطاق ؛ إنها محنة قاسية في أن تثور شكوك السلطات الإفرنسية حول الزيارات المتكررة التي يقوم بها الملازم (سي الأخضر) لزوجته (عقيلة) . لقد أخذت دوريات رجال الاستخبارات ورجال . س . آ . س في التردد باستمرار ودونما انقطاع للبحث والتفتيش والتحقيق . وتعرض أهل القرية كلهم لهذا الضغط ، ذلك، أن جند العدو كانوا يعرفون تلك الروابط الوثيقة التي تشد هؤلاء الجبليين إلى الثوار المجاهدين . وكان لهذه الاجراءات ذريعتها لدى الإفرنسيين الذين كانوا يخافون من هجوم مباغت ،

بالإضافة إلى رغبتهم في القبض على واحد أو أكثر من (العصاة ـ أو الفلاقة)[1] واعتقال أولئك الذين يساعدونهم أو يعملون على إيوائهم .

وعاشت (عقيلة) في حالة رعب دائم : الرعب من القتل ، والرعب من أن يصل زوجها في زيارة غير متوقعة ، فيصطدم بدورية الأعداء التي باتت كثيرة التردد على منزلها . وفي الحقيقة ، فإنه لم يحدث شيء من ذلك ، غير أن ما عاشته خلال تلك الفترة كان أكثر قسوة من الرعب ذاته ، لقد جفاها النوم ، فباتت دائمة السهاد ، حتى إذا ما استنزفت أعصابها ، أغمضت عينيها قليلاً ، فالخوف من زيارة أخرى غير متوقعة ، والخوف من أن يجدها الجنود نائمة في سريرها ، والخوف من كل مجهول ، كل ذلك كان يعذبها ويطرد النوم عن عينيها ، فتقفز من مقعدها لتستوي واقفة على قدميها تحملق فيما حولها لتتبين أنه لم يتحقق شيء من مخاوفها ـ حتى الآن على الأقل ـ وكانت (عقيلة) على حق في خوفها . . فهي زهرة شابة جداً ، لم تتجاوز العشرين من ربيع عمرها ، ذات قامة متوسطة (طولها ١٦٠ سم تقريباً) لها بشرة بيضاء صافية ينعكس عليها سواد شعرها الفاحم وعينان سوداوتان واسعتان ولهما نظرات أخاذة . وقد أخذ الهواء الجبلي النقي والرطب على عاتقه إكساب وجنتيها اللون الوردي ، مما كان يثير الشعور بأن وردتين جميلتين قد احتلتا مكانتهما على وجنتيها . وكان ذلك الشعور يظهر وهو أقرب الى الحقيقة عندما كانت

---

(١) العصاة ـ أو الفلاقة (FELLAGHAS) اصطلاح أطلقه بعض القادة الإفرنسيين على الثوار الجزائريين ـ المجاهدين ـ استصغاراً من أمرهم ، وتشبيهاً بهم بقطاع الطرق ، ثم أصبح استخدامه عاماً من قبل الاستعماريين لوصف (المجاهدين الجزائريين) .

(عقيلة) تبكي فتنساب منها الدموع لتتوقف على الخدين ، كما يتوقف ندى الصباح على أزرار الورد في بدء تفتحها . وكانت يداها وقدماهامكتنزتين باعتدال وكذلك ساقيها الرشيقتين . مما كان يشكل مع قوامها الأهيف ، الرشيق ، وصدرها البارز ، لوحة تمثل كل ملامح الأنوثة الطاغية . ولم يكن ذلك كله ليغيب عن أنظار الجنود الإفرنسيين والجنود الحركيين ، فيثير فيهم الغرائز الوحشية الشريرة . وشعرت (عقيلة) بذلك ، فأهملت نفسها طوعاً ، وامتنعت عن النظافة والاغتسال ، وقررت عدم استبدال ثيابها القذرة . فباتت ذات رائحة منفرة لا تستثير إلاّ عواطف الاشمئزاز .

انصرفت (عقيلة) إلى العمل ، تغرق همومها فيه ، وتلاحقت لياليها المسهدة البيضاء ، بعضها يمسك برقاب بعض ، وتتابعت عليها الكوابيس تتصل بعضها ببعض ، فكانت أقل ضجة تثير فيها الرعشة ، وأية صرخة أو طلقة نار تقلب كيانها رأساً على عقب .

هكذا عاشت (عقيلة)فترة متطاولة من المعاناة،تشاركهاهمومها أمها العجوز ، المضطربة العقل ، لما انتابها من الهموم . وكانت (عقيلة) تمضي لياليها في نسج الصوف ، وكثيراً ما توقفت عن عملها ، وهي مستغرقة فيه ، بسبب اقتحام دورية من رجال (س . آ . س) أو (الاستخبارات) باب منزلها ، بصورة مباغتة (فقد أرغمت على ترك باب المنزل مفتوحاً ، وعدم إغلاقه وإقفاله بالمفتاح) . وعندئذ تبدأ عملية استجوابها بالأسئلة المعروفة وغير المعروفة من كل نوع : هل أقبل زوجها لرؤيتها ؟ هل تعرف مركز إقامته ؟ الخ . . وهددوها ، ثم أخذوا في إزعاجها ، وكثيراً ما حاولوا التغرير بها وخداعها غير أنهم كانوا يتصرفون من غير أن يظفروا منها بما يريدون . غير أنهم لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا ، وبمعدل أربعة

إلى خمسة مرات في اليوم والليلة . ويعاودها الكابوس في كل مرة بعد انصرافهم . وتنتابها المخاوف من جديد . ولم تكن هناك دورية واحدة هي التي تتردد على منزلها ، فقد كانت ـ على الأغلب ـ ترى في كل مرة وجوهاً جديدة . وكان (الحركيون) في جملة من كان يتردد عليها ، غير أن هؤلاء كانوا يستخدمون أساليب مغايرة ، فكثيراً ما كانوا يحاولون التبسط معها وملاطفتها وكسب ثقتها ، ويعدونها بألف أمنية وأمنية جميلة ، على أمل الحصول منها على بعض أسرارها ، أو بعض المعلومات عن زوجها ، أو حتى تكون (مطواعة لهم ورقيقة في تعاملها معهم ،على الأقل ؟) غير أنه ما من أحد منهم ظفر منها بنائل . واستطاعت (عقيلة) بالرغم من كل ذلك المحافظة على موقفها بثبات . ولكن إلى متى ستستمر في احتمال هذا الشقاء ؟ وما هي حدود قدرتها على التعايش مع هذه المعاناة ؟ وحتى متى تستطيع العيش تحت التهديد المستمر بالقتل ؟ كانت يد القدر معها ، فاستجابت لها ، ومهدت لها طريق النجاة ، ولكن كيف ؟

* * *

كان (سي الأخضر) ورجاله يتابعون من مواقعهم في الجبال كل ما كان يدور حولهم . وكان أنصارهم من رجال القرية ينقلون إليهم تباعاً كل ما تتعرض له (عقيلة) وما تعانيه على أيدي رجال الدوريات الإفرنسية . بما في ذلك التردد المستمر على منزلها في الليل والنهار ، وما يرافق ذلك من تهديد وإغراء ، وتحقيق واستجواب ، وإهانات ومحاولات انتهاك او اغتصاب . . .

أدرك (سي الأخضر) أن زوجته باتت تتعرض لخطر حقيقي ، كما عرف بأنه من الخطر أيضاً محاولة القيام بزيارتها ، فقرر مع رجاله تقديم يد المساعدة لها والإسراع لإنقاذها . وشرع بجمع المعلومات

الدقيقة عن الموقف العسكري في القرية ، ونوع الدوريات التي تتردد على منزل زوجته ، وعدد أفراد هذه الدوريات ، وكذلك المواعيد الليلية والنهارية للدوريات وكذلك كل ما هو ضروري من المعلومات لوضع مخطط من أجل دخول القرية . وعلم (سي الأخضر) بأن هذه الدوريات عادة ما تكون من (س . آ . س) أو (المكتب الثاني) وأحياناً من (الحركيين) . كما علم أيضاً بأن معدل الزيارات الليلية هو أقل من معدل الزيارات النهارية .

وما أن توافرت كافة المعلومات الضرورية حتى قرر (سي الأخضر) ورجاله الانتقال إلى العمل ، ووضع مخططهم موضع التنفيذ .

شكل (سي الاخضر) القوة التي ستذهب الى القرية من ستين مجاهداً ، كلهم من الفرسان ، المسلحين أفضل تسليح ، والذين تملؤهم الحماسة ولديهم الاستعداد للقيام بأي عمل من أجل انقاذ زوجة قائدهم الشابة (عقيلة) . وسارت هذه القوة في عتمة الليل المظلم، حتى إذا ما أشرفت على القرية، عين (سي الأخضر) عدداً من رجاله لإكمال المهمة وهي (اختطاف زوجته) في حين بقي هو وبقية رجاله في أسفل القرية ، بانتظار عودة المنفذين ، وعلى استعداد للتدخل إذا ما تطلب الأمر ، وتسارعت الأحداث . وكان (سي الأخضر) قد قرر التوجه بنفسه من أجل إحضار زوجته ، وبرفقته عدد من المجاهدين ، إلاّ أن رجاله منعوه من تحقيق رغبته ، لأنهم كانوا يعتقدون ، بالرغم من تقديرهم لخطورة هذه المهمة، أن هناك اعمالاً أخرى أكثر أهمية تتطلب وجوده ، من أجل مستقبل الوطن بكامله . وأن مجاهديه أكثر حاجة لشجاعته ولكفاءته العسكرية القيادية ، ولجرأته في مواجهة مواطن الخطر . وهكذا ، وفي تلك

الليلة الخالدة التي ستبقى ذكراها ماثلة أبداً في أذهان أهل قرية (زموره) ، هكذا في الحوليات التاريخية للقرية ، اتخذ الرجال قرارهم ، وأقدموا على اقتحام الخطر الداهم واتجهوا نحو المنزل الذي تقيم فيه (عقيلة) .

كانت الليلة مظلمة كمداد الحبر الأسود ، أو كدخان الحريق ـ الشحار ـ . وكانت الريح تعصف بقوة غير معهودة حتى أنها اقتلعت ألواح التوتياء التي تغطي سقوف المنازل وقذفت بها كما تقذف الرياح أوراق الأشجار الميتة في فصل الخريف . وبلغت شدة الريح من القوة مبلغاً كادت معه تقتلع الأبواب الخشبية من جدران المنازل ؛ غير أن المجاهدين ، انطلقوا لتنفيذ مهمتهم كما هي عادتهم ، في تلك الليلة ، غير عابئين بما حولهم ، ذلك أنهم رجال (سي الأخضر) . رجال الجبال والريح والطبيعة القاسية ، وها هم يمضون إلى هدفهم ، ولا يهمهم شيء إلاّ تحقيق النجاح في تنفيذ مهمتهم . ولدى اقترابهم من المنزل ، أطلقوا بعض الرصاصات في الريح ، وقذفوا قنبلة يدوية في الفضاء ، بهدف خداع قوات الافرنسيين ودورياتهم من جهة ، ولاقناع القرويين بأن هذه القوة تقوم بدورية من الدوريات العادية التي يقوم بها (الروم) .

وصلت أصداء الطلقات وصوت انفجار القنبلة إلى رجال (المكتب الثاني) ورجال (س . أ . س) غير أن أحداً لم يحرك ساكناً لاعتقاد كل طرف من الطرفين أن الآخر هو الذي قام بذلك ، على نحو ما جرت عليه العادة ، بهدف إيقاظ انتباه القوات العسكرية المقيمة في الثكنة ، وإدخال الذعر إلى نفوس القرويين وإقناعهم بالعدول عن أية محاولة (لتعكير الأمن والنظام) الذي حرصوا على إقامته .

لقد كان كل شيء منظماً بدقة ،ومر كل شيء بسرعة ، ومن غير مجابهة أي عقبة ، كانت (عقيلة) تمارس عملها العادي في حياكة ـ نسج ـ الصوف ، وذلك على الرغم من شعورها بحاجتها الشديدة للنوم . وجاءت أصداء الطلقات وصوت انفجار القنبلة واقتراب وقع خيول الفرسان من منزلها ، فأثارت في نفسها كل المخاوف ، وأخرجت من ذاكرتها كل صور الكوابيس والهواجس التي كانت تنتابها . ولم يساورها الشك أبداً أن ذلك من فعل دورية من دوريات العدو ، أو (الحركيين) . فتوقفت عن العمل ، واكتسى وجهها شحوباً لا يشابهه إلاّ شحوب وجوه الموتى ، وأصاخت السمع . . . ومرت عليها وهي على هذه الحالة دقائق قليلة خيل إليها أنها قرون طويلة لا تكاد تنتهي . لم تتحرك أبداً ، لأن الخوف شل قدرتها على الحركة ، فثبتها على الأرض ، ومنعها من القيام بأية إيماءة ، كان نفسها يتردد بصعوبة ، كما لو أن التنفس العميق يفضحها أو يخونها ليكشف عما يعتمل في صدرها الذي بات يتقلص بشدة حتى كاد يخنقها . . . الانتظار ولا شيء غير الانتظار . . . في توقع الرعب .

ولم يكن الشك يراود (عقيلة) أبداً في أن تلك الليلة ستكون بالنسبة لها (ليلة المصير) . إن خط سير حياتها يجب أن يتغير ، يجب أن ينتهي الخوف من الجنود الأعداء ، وسينتهي معه التحقيق والاستجواب ، وما يرافقه من ضربات وإهانات وبؤس وشقاء طالما نزل بساحتها وأصاب أمها العجوز ، سينتهي كل ذلك .

وصل المجاهدون ، وتوقفوا أمام منزل (عقيلة) . وظهر مصادفة شاب يافع غير بعيد عن المكان ، فاستجوبوه . ولم يعرف الشاب الفتى أبداً أن هؤلاء الذين يستجوبونه هم مجاهدي (سي الأخضر) . وظن أنهم من الحركيين (رجال الحركة) جاؤوا

كعادتهم لتعذيب (عقيلة) وإزعاجها . فاتجه اليهم ، وربت رجل على رأسه ، وأمره بفتح الباب من الداخل . وتملك الخوف الفتى الشاب من أن يسقط صريعاً ، ولم يتمكن من رفض تنفيذ ما طلب إليه تنفيذه . ومضت ثوان قليلة ، وانفتح الباب على مصراعيه . واقتحم الرجال المنزل تاركين للشابة (عقيلة) الشعور بأنهم من رجال (المكتب الثاني) أو (س. أ. س) . وقد جاؤوا لإلقاء القبض عليها واعتقالها . وكانت الظلمة قاتمة بحيث كان من الصعب على المرء رؤية ما هو أبعد من خطوتين عن مكانه . وبوغتت (عقيلة) بقدر ما بوغتت أمها من هذا الاقتحام لمنزلها بمثل هذه القوة ، فشرعتا في العويل والصراخ بكل ما تملكانه من القوة . وأخذ الرجال (عقيلة) وسحبوها الى خارج المنزل ، واقتادوها إلى حيث ينتظرها (سي الأخضر) ورجاله .

لم تفهم (عقيلة) لعبة الخداع (ولم تكن لديها القدرة على فهمها وإدراكها) وظنت كعادتها أن مختطفيها من الإفرنسيين ، فأرسلت صرخات حادة تفتت الأكباد . واستمرت في الصراع كاللبوءة وهي بين يدي مختطفيها محاولة الإفلات من قبضتهم ، هذا فيما استمر الرجال على صمتهم ولا ينبس أحدهم ببنت شفة . وأيقظت صرخات (عقيلة) سكان القرية كلها ، وظن هؤلاء بدورهم أن (الحركيين) قد جاؤوا لاعتقال البائسة (عقيلة) . ولم يكن باستطاعة أحد منهم التدخل ، فكلهم يعانون من هذا الضيق ، وكلهم يعيشون مع هذا الكابوس المرعب . ولو أن (صرخات عقيلة تركت في أعماق النفوس أثراً لا يمحى) وفقاً لما ذكرته (الممرضة رتيبة) التي كانت تعمل في المركز الطبي . وتمكنت (عقيلة) من الافلات من قبضة مختطفيها ، وأسرعت الى منزل مجاور لمنزلها حيث

كانت تقيم فيه (الممرضة رتية) وعائلتها وأبوها الذي كان يعمل خبازاً للقرية . وأخذت (عقيلة) في ضرب الباب بكل قوتها وهي تصرخ « لقد جاء العسكر لاعتقالي » .

أسرع المجاهدون للامساك بزوجة (سي الأخضر) من جديد ، واقتيادها إلى حيث بقية المجاهدين الذين يقفون بانتظار وصولهم . ومضت دقائق قليلة . وتوقف الصراخ بصورة مباغتة . ولم يعد هنالك من يسمع إلاّ صفير الريح وهي تعصف بسقوف المنازل . لا صراخ ، ولا همس ، لقد أصبحت (عقيلة) في أيد (مأمونة) .

أردف (سي الأخضر) زوجته على حصانه ، وأعطاها منديله (فولار) الاخضر القاتم ، ومضى مع رجاله على الطريق ، محاولاً تضليل هؤلاء الذين قد يطاردونه ، حتى إذا ما وصل إلى نقطة يتفرع عنها دربين من المسالك الضيقة ، ترك أحدهما ، وسار على الآخر الذي يصل إلى (تاسامرت) التي تبعد مسافة كيلومتر تقريباً عن (زمورة) .

في هذه الفترة ، كانت القوات الإفرنسية تحاول معرفة حقيقة ما حدث ، وأمضت وقتاً غير قصير حتى أدركت الموقف ، وإذ ذاك بدأت عملية المطاردة ، غير أن الوقت كان متأخراً جداً . فقد وصل (سي الأخضر) ورجاله في هذه اللحظة إلى مسافة بعيدة جداً بات من المحال معها اللحاق به . وعلاوة على ذلك ، فقد سار (سي الأخضر) على دروب جبلية ضيقة لا تستطيع السير عليها إلاّ قطعان الماعز ، متجنباً ورجاله السير على الطريق الرئيسية التي يعرفها القرويون باسم (طريق البيلك) والتي غالباً ما تسير عليها السيارات الخفيفة للجيش الإفرنسي ـ الجيب ـ وهي تقوم بدورياتها الرتيبة .

توجه (الملازم سكاربانكي) ومعه بعض رجاله في صبيحة اليوم التالي لمقابلة خباز القرية ، (والد رتيبة) وهدفه معرفة ما إذا كان قد عرف بأمر حضور (سي الأخضر) إلى القرية . وكان الخباز يتمتع بسمعة طيبة في القرية ، فأنكر أن يكون على معرفة بالأمر ، وقال له : بأنه يعتقد ، مثله مثل أهل القرية جميعاً ، بأن رجال (المكتب الثاني) أو رجال (س . آ . س) هم الذين جاؤوا لاعتقال (عقيلة) . وهكذا فإن أهل القرية ، لم يعرفوا إلاّ بعد هذا الاستجواب ، بحقيقة ما حدث . لقد استطاع (سي الأخضر) السخرية من شجاعة الجنود الإفرنسيين ، واقتحم عليهم ملجأهم ، وانتزع زوجته من تحت مخالبهم وهو تحد حقيقي لمحترفي العسكرية الإفرنسية وقادتهم من أصحاب (الأدمغة المفكرة) .

عرفت (أم عقيلة) ما عرفه الجميع عن أمر اختطاف ابنتها ، غير أنها أصرت بالرغم من ذلك ، على القول بأن (الروم) هم الذين اختطفوها ، سواء كان المتحدثون معها من أهل قريتها ، أو كانوا من رجال الدوريات الإفرنسية ـ بصورة خاصة ـ ممن استمروا في التردد على المنزل لاستجوابها .

* * *

وصل (سي الأخضر) مع رجاله إلى قرية (تاسامرت) واستراح قليلاً . ثم استأنف السير حتى وصل (بيرقسطلي) الواقعة على بعد (٦٤) كيلومتراً من (زمورة) . ومن هناك ذهب (سي الأخضر) إلى رجل كان يعرفه جيداً ويثق به ، إنه (سي طيب) المعروف بقامته الضخمة ولونه الأسود وشاربيه الكثيفين . وأوكل اليه أمر العناية بزوجته والسهر عليها . وبدأت (عقيلة) منذ هذه اللحظة حياتها السرية في المقاومة .

كانت (عقيلة) تعمل في النهار كما يعمل كل من حولها ، متجنبة كل ما يثير شبهات القرية بأمرها أو بدفعهم للتعرف على شخصيتها . ولم تكن قرية (بيرقسطلي) أكثر من قرية متواضعة لا يزيد عدد منازلها على (ستين مسكناً) . والأمر الواضح هو أنه من المحال في قرية كهذه إبقاء قادم جديد بعيداً عن الأعين الفضولية ، أو عدم التعرف على وجوده .

وكانت (عقيلة) تعمل طوال النهار في انتظار قدوم الظلام ، حتى إذا ما هبط الليل ، خلعت عنها ثوبها (جلابيتها ـ أو دشداشتها) وارتدت ثوب القتال (لباس الميدان للجنود) ومضت مع زوجها ، حتى تعود في صباح اليوم التالي . وعندما لم تكن ترافق زوجها (سي الأخضر) كانت تعمل بوصاياه وتعليماته ؛ فتنتقل في كل ليلة من بيت إلى بيت ، وتقتصر في حديثها على الحد الأدنى مما هو ضروري . دون أن تذكر شيئاً عن المكان الذي جاءت منه ، أو تكشف عن هويتها ومن تكون ، ذلك لأن الحركيين يترصدونها، والجنود الإفرنسيين قد شددوا البحث عنها . وبات لزاماً عدم التعرض لأي خطر عن طريق ترك أي أثر قد يهتدي به(القوم) لمعرفة حقيقتها أو افتضاح أمرها .

عثرت الدوريات التي دفعها الإفرنسيون للبحث عن آثار (الفلاقة) على المنديل ـ الفولار ـ الذي كان (سي الأخضر) قد أعطاه لزوجته (عقيلة) . وسلموه إلى النقيب (آموريك) الذي قام بإعطائه الى امرأته ـ الطبيبة في المركز الصحي ـ . وعملت هذه بدورها على إظهاره أمام (رتيبة) الممرضة التي كانت تهتم بأمر (عقيلة) وتعتني بها ، وقالت لها بصوت متهدج ، وبلهجة صارمة : « انظري :ها هو منديل ـ فولار ـ رفيقتك الفلاقة ، وآمل أن تتجنبي فعل ما قامت بعمله ، وإلاّ فإنني سأفك لك رقبتك . . . » .

خلال هذه الفترة ، كانت حياة (عقيلة) في قرية (بيرقسطلي) قد شهدت بعض التغيير . إذ باتت تعمل بهدوء ، محاولة نسيان كل معاناتها وآلامها التي عرفتها هناك في قرية (زمورة) . حتى جاء اليوم الذي واتت فيه أحد الحركيين (رجال الحركة) فكرة شيطانية ، وذلك بإرسال أمه الى (قرية بيرقسطلي) بهدف التجسس على سكان القرية ، والحصول على بعض المعلومات التي قد تفيده . وكانت المرأة العجوز تعرف معظم سكان القرية ، مما ساعدها على تنفيذ مهمتها إلى حد بعيد . ولم يكن من العسير عليها التسلل إلى وسط القرويين ، واكتساب ثقتهم ، والدخول بسهولة إلى قلب منازلهم . وفي إحدى الأمسيات ، دخلت منزلاً من المنازل بحجة زيارة أصحابه ، ولفت انتباهها وجود فتاة حلوة كانت منصرفة لعملها في حياكة الصوف . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها بصرها على هذه الفتاة ، مما أثار اهتمامها . فرسمت المرأة العجوز ابتسامة ماكرة على شفتيها ، واقتربت من الفتاة ، ثم جلست إلى جانبها . ولم تجد صعوبة كبرى في اكتساب ثقة الفتاة الحلوة ، ذات النظرة البريئة والنفس الصافية . وباحت (عقيلة) بسرها .

* * *

سار الملازم (سكار بانكي) على رأس مجموعة من رجاله في اتجاه قرية (بيرقسطلي) بعد أن أعلمتهم المرأة العجوز عن البيت الذي تسكنه (عقيلة) . وعندما وصلت هذه القوة إلى القرية ، قامت بتطويق المنزل وإحكام الحصار حوله . ثم باتوا ينتظرون وأصابعهم على زناد السلاح ، وهم ينتظرون أمر الهجوم من الملازم (سكار بانكي) . وكان هذا يريد اصطياد عصفورين بحجر واحد . وكان يعرف بأن الملازم (سي الأخضر) سيأتي في ليلة من الليالي لرؤ ية

زوجته حتى يصطحبها معه . ولهذا فقد انتظر (سكار بانكي) ظهور (سي الأخضر) حتى يقتله مع زوجته . وليحقق الأمل الذي طالما داعب مخيلته منذ أن اختطفت (عقيلة) من قرية (زمورة) .

مضت الليلة الأولى ، ولم يظهر (سي الأخضر) . وفي الليلة التالية ، وصل ممتطياً صهوة جواده ، ومعه بعض فرسانه ، ودخل المنزل . وبوغت فرسان (سي الأخضر) بالهجوم عليهم ، فلم يتمكنوا من استخدام أسلحتهم ، وسقطوا شهداء على الفور . وشرع رجال (الملازم سكار بانكي) بتوجيه نيرانهم إلى المنزل الذي دخله (سي الأخضر) . وأمسك الرجل وزوجته سلاحهما بشجاعة ، ووجها نيرانهما إلى الأعداء ، فقتلا بعض الجنود الإفرنسيين . غير أن المعركة لم تستمر طويلاً . فلم تمض أكثر من ثوان قليلة حتى صمتت الأسلحة . وخيم السكون . ثم استؤنف إطلاق النار بكثافة عالية ، وتهدمت جنبات المنزل . وعاد الهدوء من جديد . وعندما تبدد الدخان والغبار الخانقين ، تقدم رجال (سكار بانكي) بخطى مترددة وجلة وأصابعهم ترتجف على الزناد . وعندما وصلوا إلى عتبة المنزل ، دفعوا الباب بأخمص السلاح . واقتحموا المنزل ، فوجدوا (سي الأخضر) و(عقيلة) وهما قتيلين وسط بركتين متجاورتين من الدماء ، وهما ممسكين بسلاحيهما اللذين أفسدهما كثرة ما أصابهما من الرصاص . وعرف فيما بعد أن (عقيلة) كانت حاملاً في أسبوعها الثالث .

* * *

اجتاحت الجزائر في يوم ٥ جويليه ـ تموز ـ ١٩٦٧ موجة من البهجة والفرح . فقد تفتحت كل الآمال ، وكل الأحلام التي طالما أحبطت خلال سنوات عديدة ، وارتفع العلم الجزائري أخيراً ، في

هذا اليوم المشرق ليرفرف عالياً فوق أبنية العاصمة كلها ، وفوق كل مدن الجزائر ، إنه علم انتصارات الشهداء الأبرار . إن الجزائر تعيش عيدها ، لقد حصلت أخيراً على استقلالها .

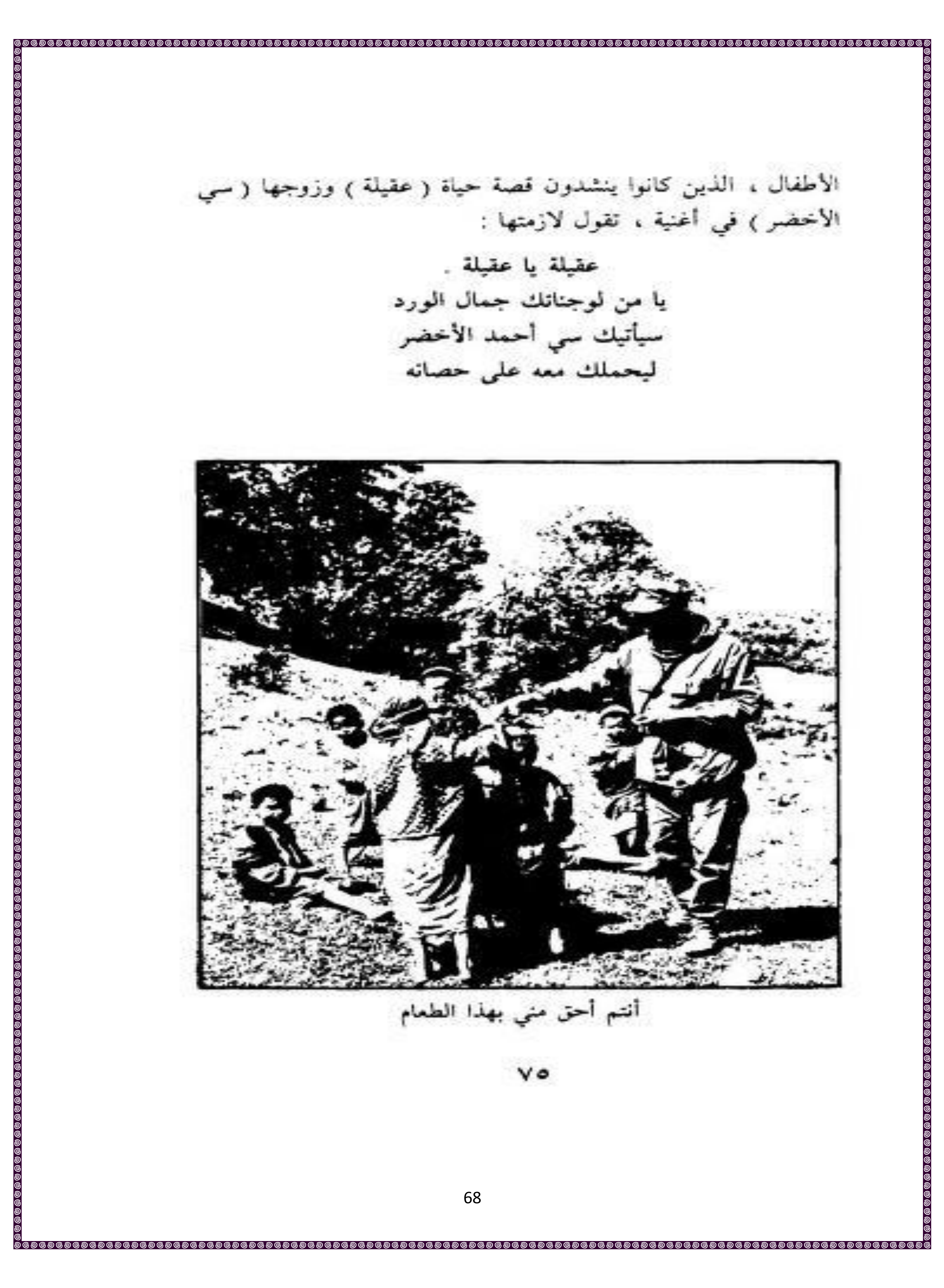
أخذ الاحتفال بالعيد في قرية (زمورة) طابعاً مثيراً من الفرح والسعادة . وكان لا بد أيضاً من التفكير بأولئك الذين كانت تضحياتهم هي التي مهدت لظهور فجر هذا اليوم . فقرر الفلاحون أن ينقلوا إلى قريتهم رفات أبنائهم ، ولم يتأخروا عن تنفيذ فكرتهم . وكان بين العظام التي ضمها الكفن الأبيض عظام (سي الأخضر) وزوجته (عقيلة) . لقد كان الحديث على كل شفة يتردد بذكر قصة الزوجين ، وشجاعتهما وميتتهما البطولية . ولم يتعب الناس أو يشعروا بالملل من ترديد القصة ، وتناقلها ، والإشارة في كل مرة إلى (عقيلة) الفتاة الحلوة والزوجة الأمينة التي كانت أول امرأة في القرية انضمت إلى الثوار وهي تحمل السلاح .

كان حفل التأبين الجنائزي مؤثراً وعظيماً بقدر ما كان بسيطاً . وقد أقيم في داخل الثكنة الكبرى التي ظلت حتى الأمس رمزاً للقهر والظلم . وشاركت في الحفل كل بيوت القرية التي عملت على طهو الطبق الشعبي (الكسكس) مع تقديم الحليب واللبن الرائب - العيران - . لقد قام أهل كل منزل في تقديم الطعام تعبيراً عن مشاركتهم بهذا الحدث . وفي الحفل ، كان الجو غريباً ، اختلطت فيه المشاعر بطريقة تعجز الكلمات عن وصفها ، لقد وصلت مشاعر الفرحة بالحرية والاستقلال حتى ذروتها ، غير أنها فرحة اقترنت بالحزن العميق لغياب أشخاص أحبهم الجميع ، وافتقد الجميع مكانهم بينهم .

ودخلت اسطورة البطولة للزوجين الشجاعين في حكايات

الأطفال ، الذين كانوا ينشدون قصة حياة (عقيلة) وزوجها (سي الأخضر) في أغنية ، تقول لازمتها :

عقيلة يا عقيلة .
يا من لوجناتك جمال الورد
سيأتيك سي أحمد الأخضر
ليحملك معه على حصانه



أنتم أحق مني بهذا الطعام

٢ ـ من سلف الذكريات
مع (فضيلة سعدان)(*)

لم أباغت أبداً وأنا أقتحم غرفة نومي فأكتشف بأن يد العبث قد أثارت فيها الفوضى والاضطراب . إنهما ابنتاي البالغتان من العمر ثلاثة عشرة ،وأربعة عشر عاماً ، حتى لتحسبهما أنهما توأم واحد . وها هما وقد تمددتا فوق كومة من الصور والأوراق القديمة ، التي يضمها عادة (صندوق الذكريات) وقد أفرغ من محتواه ، ونثر بإهمال على الأرض . وصرخت :

ـ لقد منعتكما من تحويل غرفة نومي إلى اسطبل ! أين هي أختكم الكبرى ؟

وقفزت الصغيرتان لدى سماع صوتي ، واستدارتا برأسيهما نحوي وقالت كبراهما :

ـ لقد أثرت الروع في نفوسنا . والتقطت ابنتي (فضيلة) طرف الحديث وقالت :

(*) كاتبة الموضوع هي مديرة لمدرسة ابتدائية ـ حالياً ـ في الجزائر ، واسمها (أنيسة زموشي) وكانت صديقة للبطلة الشهيدة (فضيلة سعدان) ـ وهي تستعيد هنا ذكرياتها عنها .
والمرجع : RÉF: RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED ALGER. (1977) P. P. 329- 341.

ـ أجل ، لقد أفزعتنا . وعندئذ قلت لهما : حسناً ، تحدثا بصوت ناعم حتى لا يستفيق أخوكما الصغير من نومه . وأثناء هذا الاضطراب ، سقطت من يد (البنات) صورة ، سارعت لالتقاطها وتأملتها طويلاً ، فانقلب كياني رأساً على عقب .

كانت الصورة تحمل خلفها الكتابة التالية : (فضيلة : ٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٦) وكانت هذه الصورة جانبية (بروفيل) التقطت لفضيلة أثناء فترة اعتقالها .

وسألت فضيلة بكثير من الفضول الطبيعي : لمن هذه الصورة يا أماه ؟

غير أنها لم تنتظر الإجابة ، بل راحت تبحث بنظرها عبر الصور المتناثرة فوق السرير . في حين كانت أصابعي تتشبث بالصورة خوفاً من سقوطها مرة أخرى ـ وقلت : ـ

يا فضيلة ! هذه هي صورة فضيلة !

وزلقت يدي إلى جيب مئزري ، ووضعت فيها الصورة ، وتراجعت مترنحة ، وتركت نفسي أهوي على مقعد كان موجوداً هناك . وهيمن علي حزن عميق ومباغت ، في حين كانت بناتي مشغولات عني باكتشافاتهن ، حتى أنهن لم يشعرن بما أنا فيه ، بل ربما نسين وجودي بينهن . وقلت في سري :

ـ فضيلة ! كنت زَهْرةً عُمرها ١٨ ربيعاً ! (لقد كنت من مواليد ١٠ نيسان ـ أفريل ـ ١٩٣٨ ، وكان مسقط رأسك في الحروش (من نواحي سكيكيدة) . كنت صبية في مقتبل العمر على كل حال .

لقد مضى زمن غير قصير على غيابك ، غير أنني أشعركم أني لصيقة بك ، كأن الأيام لم تباعد بيننا . إنك قريبة مني إلى درجة لا أستطيع تصديقها ، إنك لا زلت حية . . . كم كنت نضرة ، وكم كنت

قوية ، فضيلة ! أنت بعينيك الضاحكتين أبداً ، وبابتسامتك الساحرة الأخاذة . وما أحلى مناجاتك . وبدأ شريط الذكريات يتدفق متسارعاً :

هبطت (فضيلة) ذات صباح من معاقل (الثوار) وبرفقتها أخوها في السلاح (عمر كيحيا) . وسلكت في طريقها الدرب الذي ينتهي بالقرب من (مدينة البير) حيث كان عليها أن تأتي لزيارتنا بعد ذلك ، وكانت تتقدم وأخوها في السلاح بحذر ، ولكن كم كان أمراً مباغتاً أن يقفا وجهاً لوجه مع دورية فرنسية ، وقد أمسك أفرادها بمسدساتهم الرشاشة ، وهم على أتم استعداد لإطلاق النار عند الاشتباه بأية حركة غير طبيعية في وسط المارة . وعلى الرغم من أن الوقت لا زال مبكراً فقد كان هناك عدد من السابلة .

فهل سقط الاثنان ضحية الرعب ؟ وهل كانا يحملان وثائق سرية وأسلحة هامة على نحو ما يفعلانه في كل مرة كانا يهبطان فيها من الجبل ؟ لا هذا ، ولا ذاك ، وكل ما فعلاه هو أنهما ركضا بسرعة جنونية ، واقتحما منطقة الأبنية القديمة . ثم افترق الشابان المناضلان ، ليبحث كل واحد منهما عن ملجأ ينجيه ، وهما يعرضان حياتهما بتصميم وشجاعة لكل ما تخبئه مباغتات القدر ، ولكل ما قد يقوم به جند العدو . غير أن هذه المواجهة المباغتة وغير المتوقعة للبطلين ، لم تكن لتمر من غير أن تسترعي انتباه رجال الدورية الآلية ـ المتحركة ـ والتي كان رجالها مشدودي الأعصاب دائماً : فأطلقوا النار فوراً ومن غير تردد على الهاربين ، وانهمر الرصاص على طريق الفرار ، وأصابت إحدى الرصاصات كتف (عمر) فتركته يعاني من الآلام المبرحة طوال شهرين كاملين ، مع اضطراره للبقاء في الملاجىء السرية تحت العناية الطبية ، وكان مما زاد من آلامه

الجسمية تلك المعاناة النفسية المريرة بسبب إلزامه على البقاء من غير القيام بأي عمل أو نشاط له صلة بالصراع ضد أعداء البلاد . وطالما تذمر في تلك الفترة من حجزه ، ومن عجزه عن متابعته الصراع . لقد كان أمنه وسلامه مرتبطاً بقدرته على الجهاد .

أما (فضيلة) فقد اقتحمت بحزم كوخاً صغيراً من تلك التي تؤ وي الفقراء . فوقع نظرها فوراً على سيدة عجوز وقد جلست على جلد خروف ، وهي تدير طاحونة القمح اليدوية . فنظرت إليها بقلق خلال جزء من الثانية . لم يكن الوقت يسمح بتبادل الحديث أو شرح الموقف ، يجب الخروج من المأزق بأقصى سرعة ، وتجنب الخطر قدر المستطاع . واستطاعت المرأة العجوز الطيبة أن تدرك المأساة التي تتعرض لها الفتاة (فضيلة) ، وأمكن لها الاحتفاظ بكل برود أعصابها وهدوئها ، فقامت بحل شعر الفتاة ، حتى ظهرت بشكل (فتاة غندورة) ثم نثرت بعضاً من الدقيق عليها حتى غطتها فظهرت وكأنها تمارس عملها منذ وقت غير قصير في (طحن القمح) . غير أن ذلك لم يكن كل شيء ، فثيابها لا تزال تحمل رائحة جسدها ، وكذلك منديلها الأسود الذي سقط منها أثناء ركضها الجنوني . وشعرت (فضيلة) أنها وقعت في الفخ ، إنه خطر حقيقي في أن تترك ذلك الأثر الذي يفضح أمرها ، ويمهد لإلقاء القبض عليها عندما يصل رجال الشرطة بعد هنيهة وبرفقتهم كلابهم البوليسية وناجت (فضيلة) نفسها : (**أنقذني يا الله ! ماذا أفعل ! احفظني يارب ، واحمني يا إلهي**) وأخذت أسنان (فضيلة) تصطك رعباً ، فهي تعرف ما قد تتعرض له فيما لو تم إلقاء القبض عليها . وفكرت للحظة في أختها (مريم) التي اختطفها الإفرنسيون بطريقة غامضة ، ثم أعلنوا عن موتها تحت التعذيب . وخطرت في ذاكرتها أيضاً ، كلمح

البصر أسماء رفيقاتها (مريم بوعطورة) و(سالمة أم حازم) اللتين لقيتا مصيراً بائساً كمصير أختها (مريم) . . . واستمرت (فضيلة) في مناجاة نفسها : يجب أن أحافظ على هدوئي ـ يا . . ما . والتفتت إلى المرأة العجوز : هل لديك مسحوق (د.د.ت) . ؟ وأجابتها هذه : شكراً لله ، لدي منه . وأسرعت العجوز الطيبة ، من غير تردد أو تلكؤ ، لإحضار المسحوق ، وأخذت في نثره حول مسكنها البائس ، ومن المفروض أن تكون رائحة هذا المسحوق قد أزالت كل أثر لرائحة فضيلة . وأثناء ذلك ، كان قلب (فضيلة) يضرب بشدة ، ويضرب ، حتى ليكاد يقفز من صدرها ، وقالت مناجية نفسها ؛ ملتجئة إلى ربها : يا الله . ساعدني حتى لا أكشف عما بي من اضطراب . وقامت (الغندورة) بإخفاء قنبلة يدوية تحت طيات ثوبها ، وأعدتها للتفجير عند الضرورة لقد صممت على عدم الوقوع في قبضة أعدائها وفيها حياة تختلج . وعادت للمناجاة : لن أموت وحدي ياما (يا أماه) وسأقتل معي عدداً من (أولاد الكلب) .

هيمن السكون والصمت على ما يجاور الكوخ ، وخاف المارة من إصابتهم برصاصة طائشة ، وقد اعتاد الجميع اللجوء إلى منازلهم في كل مرة يتناهى إلى سمعهم اطلاق النار ، أو يمرون بظروف مماثلة . ووصل إلى أسماع (فضيلة) وقع خطوات متسارعة مختلطة بعواء الكلاب ، وصوت جندي يحادث آخر ـ باللغة الإفرنسية ـ وهو يقول له : من هنا يا بول .

وأخذ الطنين يتردد قوياً في أذني (فضيلة) وهي تسمع من جديد :

ـ من هنا ـ من هنا ـ في هذه المرة لن يفلتوا من قبضتي .

وخفضت (فضيلة) رأسها ، وقد عاودتها شجاعتها ، فاستمرت

في عملها وهي تدير الطاحونة وظهر اثنان من رجال الدورية ، وهما بهيئة مرعبة ، وتحدثا بلهجة قاسية وهما يسألان بصوت واحد : هل لجأ أحدهم للاختباء عندكم ؟

وأجابت العجوز الطيبة بلهجة طبيعية تماماً : فتش ! .

وانطلق الجنديان للنظر في كافة زوايا الكوخ ، ثم اقتربا من الفتاة وأعادا طرح السؤال ذاته ، فردت هذه بإيماءة سلبية ، وهي تشد على القنبلة اليدوية بيدها الأخرى . وانطلق الجنديان نحو الباب بخطوات متعجلة وأحدهما يقول للآخر : فلنسرع للبحث في مكان آخر .

اختلطت المشاعر القوية في نفس (فضيلة) فلم تعد تعرف أتضحك أم تبكي . وتدفق الدم الى وجهها فأصبح أحمر بعد أن كان أصفر شاحباً . ونهضت وهي تقفز من مكانها وتنفض الدقيق من على ثيابها . فعانقتها المرأة العجوز الطيبة ، وقدمت إليها قدحاً من الماء مع قطعة من السكر ، وقالت لها بلهجة حنون : إشربي هذا يا ابنتي حتى تهدئي ويزول ما بك !

* * *

ألم تكن هذه ملحمة ؟ كلا ! وهي ليست أسطورة . فقد روتها لي (فضيلة) وهي لا تزال تحت تأثير الصدمة المرعبة . وتأكد لي صدق قولها من حالتها النفسية التي كانت عليها عندما أقبلت لزيارتي بعد الحادث الذي صادفها مباشرة . وقلت لها عندما أنهت حديثها :

-(فضيلة)لماذا تعرضين حياتك للخطر ،على مثل هذا النحو ؟ .

وأجابت (فضيلة) : حتى يكون لي الحق أن أعيش بشرف . قالت ذلك بصورة عفوية ، وبلهجة تحمل معنى التوبيخ لأنني طرحت عليها مثل هذا السؤال .

كانت الصرخات المباغتة التي تطلقها (البنات) ما بين فترة وأخرى ، تكاد تبعدني أو بالأحرى تنتزعني من دائرة (صندوق الذكريات) التي أخذت في محاصرتي ، وتضييق الخناق علي . وانتزعني صوت إحدى البنات وهي تهتف قائلة :

ـ أنظري يا أماه ، كم هي شابة جميلة في هذه الصورة ؟ . وأجبت :

هي لا تزال صبية حلوة ، لو عاشت حتى اليوم ! كم كانت جميلة ؟ وكم كانت رقيقة ؟ وكم كانت مجدة مجتهدة . إنني أكاد أراها الآن وهي تحضر حفل توزيع الجوائز في نهاية كل عام دراسي . لقد كان اسمها معروفاً من كل الأساتذة ومن كل الطلاب . كان اسمها يتردد على ألسنة الجميع **فهي** : **فضيلة . س . الحائزة على الجائزة الأولى في اللغة الإفرنسية .**

وهي فضيلة . س . الحائزة على الجائزة الأولى في اللغة العربية .

وهي فضيلة . س : الحائزة على الجائزة الأولى في الرياضيات .

وهي فضيلة . س : الحائزة على جائزة التفوق بامتياز .

كانت ذراعاها مثقلتان دائماً بالمجلدات الضخمة . وكانت دائماً تلميذة مجدة رائعة . وقيل عنها أيضاً أنها (صعبة المراس) . . . وقاطعتني إحدى البنات بقولها : ولهذا أصبحت ثائرة ؟ لا ، لقد حدث ذلك قبل إضراب الطلاب سنة **١٩٥٦** بوقت طويل . حيث وقع ما أطلق عليه إسم (العصـ . . يان) وفقاً لما كانت تصفه بهذه الكلمة المتقطعة ، الآنسة (شفز) المراقبة العامة للفتيات في معهد قسنطينة ، والتي انقطعت عن ممارسة مهنتها . كان صوتها متهدجاً

وحاداً ، لا سيما عندما كانت تتحدث إلى الفتيات الجزائريات اللواتي كن قليلات في تلك الفترة ، يعشن في وسط كله غريب عنهن .

كانت الفتيات ينتظمن في الصف ، عند العشاء ، للدخول الى قاعة الطعام باعتبارهن طالبات داخليات ـ مقيمات ـ في المعهد . حتى إذا ما جلسن إلى الطاولة ، قدمت إليهن وجبة العشاء المعروفة : الحساء ، وطبقاً لا يتغير من الطعام واللحم . وكان هذا اللحم من نوع (لحم الخنزير) في معظم الأحيان . وكانت الطالبات كثيراً ما يتحدثن بعضهن إلى بعض ـ في الفرصة ـ عن موضوع هذا الطعام . وكانت (فضيلة) رئيسة للطاولة ، وذات يوم أعلنت تذمرها بصوت مرتفع وهي تحتج قائلة : « **ما من سبب لحرماننا من لحم الخروف أو لحم البقر** » . وظهر بوضوح أنه بات من المحال الاستمرار بقبول هذا الوضع الذي مضى وقت طويل على فرضه ، غير أنه بات من الواضح أيضاً بأننا سنواجه مأزقاً صعباً وأياماً عسيرة . وقيل لنا بأن وجبة العشاء ستتغير ، وأنه سيقدم لنا طبق الطعام بصورة ملائمة . فطلبنا بحزم ألا يحتوي الطبق الأخير (لحم الخنزير) . وتم قبول طلبنا ، **غير أننا أصبنا بالإحباط عندما قدم لنا لحم (الكورن بيف ، أو العجل**) بدمه ، **وهو غير مذبوح على الطريقة الإسلامية . فرفضنا قبول الطعام أو تذوقه** ، وبدأ ما أطلقت عليه الآنسة (شفز) اسم (العصب . . . يان) وذلك عندما اندفعت نحو (فضيلة ، صعبة المراس) وقالت لها بلهجتها الحادة :

«إنك أنت يقيناً ! أنت عنصر التحريض ! فهل تريدين شيئاً آخر ؟ ألا يرضيك شيء ؟ » .

وابتسمت (فضيلة) ابتسامة ساخرة ، ثم اجتاحتها نوبة من الغضب ، وأجابتها وهي تشير إلى (اللحم الأحمر) وهي تقول :

« إنكم تعرفون جيداً بأن هذا اللحم محرم علينا نحن المسلمين » .
وكانت هذه الكلمات تمثل تحدياً صارخاً ، واجهته (الآنسة شفز) بنوبة من الغضب المحموم ، وقد تقلصت أساريرها ، فقالت مهددة متوعدة :

« حسناً ! سننظر في الأمر » .

قامت السيدة المديرة بجمع الطالبات المسلمات في صبيحة اليوم التالي بمكتبها . وكانت (فضيلة) كعادتها ، هي، التي تولت الدفاع عن قضية الطالبات ، وهي التي وقفت في المقدمة لشرح الحقوق الشرعية للطالبات . وتضامنت الطالبات مع (فضيلة) فخرجن من الاجتماع ساخطات ، وقررن (الإضراب عن الطعام) حتى تستجاب ، طلباتهن مهما تعرضن في سبيل ذلك للخطر . وكان لا بد لهن من هذا الإجراء بعد أن أرغمن عليه ولم يبق أمامهن طريق سواه .

استمرت الفتيات الطالبات في إضرابهن ثلاثة أيام ، وعضهن الجوع بنابه ، وكانت معاناتهن مع الجوع صعبة وشاقة ، غير أنهن قررن التجلد والصبر مهما اشتد عليهن الأمر ، ومهما ساءت حالتهن . وزاد من سوء موقفهن أنهن يتوقعن تضامن زميلاتهن ، الأجنبيات غير الجزائريات معهن ، ولكن رفيقات الدراسة انصرفن عنهن ، وأظهرن عدم اكتراث بقضيتهن ، بل إنهن لم يظهرن شيئاً من الاهتمام بمصيرهن . وعلى كل حال ، فقد جاء اليوم الرابع ومعه وعد بتقديم اللحم (المذبوح والمطبوخ ـ المطهي ـ على الطريقة الإسلامية) وصاحبت الفتيات فرحات (انتصرنا) . غير أنه كان لا بد من الاستمرار في التضحية ، بالرغم من كل المعاناة وآلام الجوع ، إذ كانت القضية هي قضية مبدأ ، كما قالت (فضيلة) . ولا يجوز أن

تناول أي طعام حتى يقدم لنا (اللحم من الخروف أو البقر المذبوح على الطريقة الإسلامية) .

وارتسمت ملامح الفتاة المجاهدة على شخصية (فضيلة) منذ ذلك التاريخ .

خلال تلك الفترة ، اخترت طريق الزواج في ظروف البلاد المضطربة . أما (فضيلة) فقد وجدت نفسها مرغمة على متابعة طريقها ، محاولة التوفيق بين الدراسة والصراع . وقد بدأ ذلك في شهر أيار - ماي - ١٩٥٦ ، عندما صدر الأمر إلى كل الطلاب بإعلان الإضراب العام عن الدراسة . وكان هذا الإعلان هو القنبلة المدمرة لنظام التعليم الإفرنسي ، وقد أدرك الطلاب دورهم ، وحددوا مطالبهم الشرعية .

* * *

كانت (فضيلة) من بين المحرضين على الإضراب ومن قادته ، فضحت بذلك بالقسم الثاني من شهادتها الثانوية (البكالوريا) . وبدأت الاعتقالات على نطاق واسع . وكانت (فضيلة) في جملة المعتقلين ، وألقي بها في سجن (الكدية) . واستمرت فترة اعتقالها لمدة سنة كاملة ، تعرضت خلالها الفتاة البائسة لكل أنواع المعاملة السيئة ، والأساليب الدنيئة ، والأعمال الشائنة التي يندى لها الجبين بالنسبة لفتاة صبية عذراء مسلمة . فقد شوه جسدها ، ووشم برسم أعقاب لفافات التبغ - السكائر - التي كان يتم إطفاءها على جسمها ، مما ترك على بشرتها آثاراً واضحة لازمتها طويلاً ، وتركت حروقاً مرعبة . وأرغمت على مشاهدة التعذيب وعمليات الإعدام - الإبادة . وعرفت (فضيلة) من خلال تجربتها نوعاً لم تكن تعرفه من المخلوقات البشرية ، إنه نوع يتمثل فيه الحقد الكريه والقسوة

الوحشية ، وقد دعمت هذه المعرفة حجتها للصراع ، وقلبت كيانها المرهف الإحساس .

حصلت (فضيلة) بعدئذ على فترة من الهدنة ، وسمح لها بمتابعة دراستها ، بشرط ترك البلاد لفترة معينة ، إنها فتاة متعلمة ومناضلة ، وقبلت . إن هذا العرض سيزيد من صلابتها ، وسيشجعها على المضي قدماً في الطريق الذي اختارته لنفسها . وكانت هناك فكرة نبتت في ذهنها ، وأخذت تلح عليها باستمرار ، فبعد الحصول على القسم الثاني من شهادتها الثانوية (البكالوريا) ستتابع دراسة الحقوق في جامعة (كلير مونت ـ فيراند) في فرنسا .

مضت (فضيلة) الى فرنسا تاركة وراءها فراغاً كبيراً ، غير أنها كانت هناك على كل حال في مأمن ، وبعيدة عن الضغوط التي كان يرزح تحتها شعب الجزائر ، مما كان يترك نوعاً من الطمأنينة تجاهها في نفوس أولئك الذين يعرفونها ويحبونها . ومضت الأيام متلاحقة ، وأشرفت السنة الدراسية على نهايتها . وأخذنا ننتظر عودتها بصبر نافذ ، ونعد الأيام التي تقربنا من العطلة الصيفية .

كنا نردد باستمرار القول : ستكون (فضيلة) بيننا عما قريب . وكانت تصلنا ما بين فترة وأخرى معلومات متفرقة عن أختها (مريم) التي كانت تعاني بدورها من ظروف العيش في سجن المدينة . ولم يرحم أحد حياتها البائسة ، فسقطت شهيدة بين أيدي جلاديها . (مريم) تلك الصبية التي كانت تشدني إليها عواطف الصداقة العميقة . لقد انضمت إلى قافلة الضحايا الذين مضوا إلى ربهم ، إنها ضحية جديدة من ضحايا (النشاط الاستعماري) ورجاله الذين تجردوا من الضمير ، وحرموا من كل عاطفة إنسانية . ولكن المشكلة الراهنة : هي كيف يمكن إعلام (فضيلة) بموت أختها ؟ إنها

ستكون هنا بعد بضعة أيام ، لا أكثر ، فهل ستكون قادرة على احتمال هذه الصدمة الجديدة ؟ لقد كانت (فضيلة) ذات (إرادة صلبة) تدفعها للسير نحو مثلها الأعلى ، غير أن صحتها لم تكن جيدة ، وهذا ما كان يخيفنا .

عندما وصلت (فضيلة) عانقناها عناقاً حاراً حمل كل الشوق بعد طول غياب . وكنا ونحن نعانقها نخاف على قوامها الرقيق من أن يتحطم . غير أنها كانت تمتلك من الروح المعنوية العالية والفضائل الأخلاقية ما يمكنها من التعويض عن ضعفها الجسدي ، ويرفعها صعداً نحو أهدافها ، وإذا كانت لا تزال فتاة شابة صغيرة العمر ، غير أن ذلك لم يمنعها من استيعاب مشكلات بلادها ، بكل اتساع تلك المشكلات وعمقها . وكان ينتظرها ـ علاوة على كل معاناتها ـ ألم مرير لعله أكثر قسوة من كل آلامها ومعاناتها، إنه اختفاء اختها الحبيبة في ظروف تشكل مأساة قائمة بحد ذاتها . وكانت (مريم) هي الوحيدة التي تفهم (فضيلة) بعمق ، وتحبها بشغف ، وتشجعها على المضي قدماً في طريق الجهاد ، وذلك ضد رغبات كل من يحيط بهما من الأهل والأقارب وحتى الأصدقاء . وكان تأثير (مريم) على أختها (فضيلة) كبيراً ، فأخذت عنها الشجاعة والثقة بالنفس ، وغذت فيها الإيمان ، وتعلمت منها حب العمل على طريق الخير والعدل . وها هي تسير على طريقها حتى نهايته . وهو الطريق الذي سبقهما إليه عمهما (الدكتور سعدان) . ثم ها هي (فضيلة) تعلم بصورة مباغتة باستشهاد أختها (مريم) والظروف التي أحاطت بمصرعها وهي تحاول خدمة قضية بلادها . وقالت (فضيلة) :

« **هذا شيء لا يحتمل ! من أي نوع هؤلاء البرابرة الذين يطلقون نيرانهم على الأبرياء ؟ وكيف السبيل للتعبير عن مشاعر الاحتقار**

تجاه تلك الوحوش الاستعمارية ؟ كم أنت بائسة يا (فضيلة) ؟ . وما أحوجك إلى قدر إضافي من الشجاعة ؟ وكم هو صعب ما تواجهينه ؟ ولكن لا بد من مواجهة الأمر الواقع ، هذا الواقع الذي أصاب نفسك بجرح عميق سيبقى نازفاً . إبتهلي إلى الله حتى يحفظ لك ملكاتك العقلية ! .

جاءت (فضيلة) لزيارتنا في اليوم التالي لوصولها . واستقبلتها مع أفراد عائلتي . كانت منهارة القوى ، وكانت نظراتها ساهمة شاردة ، تنظر إلينا محدقة وهي لا ترانا . وكانت نفسها تفيض مرارة بأكثر مما تفيض غضباً وهي تقول : « **لقد ماتت مريم ، كيف يمكن احتمال ذلك ؟ يجب ألاّ يستمر ذلك ! » ترى بماذا كانت (فضيلة) تفكر وهي تنطق بهذه الكلمات ؟ .**

لقد كانت (فضيلة) تعيش في تلك اللحظة ذروة الانفعال ، وأقصى درجات التأثر والاستثارة . كانت دموعها تنهمر بغزارة ، فشاركناها جميعاً البكاء . وكان صوتها المختنق بالعبرات يتلجلج بكلمات أخرى غير واضحة ومتقطعة بسبب إجهاشها بالبكاء . كانت عيناها متورمتين ، منتفختين ، وصمتت قليلاً ، ثم عادت وأجهشت منتحبة ، وانتصبت واقفة وارتسمت على وجهها خطوط قاسية ، وعاد صوتها حاداً ، يشبه الزئير .

بقيت (فضيلة) شديدة التعلق بنا قدر تعلقنا بها ، فكانت كثيراً ما تفتح لنا صدرها لتبوح لنا بأسرارها . غير أنها بقيت صامتة في هذه المرة . وهي لم تكن في حاجة للإفصاح عما ستفعله ، كان تصميمها واضحاً ، يغني عن كل بيان . وعرفنا أنها لا زالت تملك معيناً لا ينضب من الحزم و (المراس الصعب) . وكل ما كان باستطاعتنا قوله لها : كوني حذرة . . .

انضمت (فضيلة) إلى الثوار الذين استقبلوها كما لو كانوا في انتظارها . وحملت السلاح في الجبال مع إخوانها المجاهدين وأخواتها المجاهدات . ولقد حملت السلاح في هذا المرة وهي أكثر ثقة بقدرتها على الانتقام من الأعداء . إنها ستنتقم لأختها (مريم) . ولن يثنيها عن عزمها شيء ، هنا ستعيش مع وطنها الحقيقي ، وطن الحرية ، وستنال حريتها وتمارسها قبل أن يتحرر وطنها .

* * *

استخدمت (فضيلة) منزلنا ملجأ لها باستمرار ، فلم تنقطع اتصالاتنا بها ، وعندما كانت تنقطع عن زيارتنا ، كانت أيامنا تمضي ثقيلة ، حزينة ، رتيبة ، . حتى جاء ذلك اليوم الحاسم عندما أقبلت علينا ، وانتحت بوالدتي (ليلى) جانباً لتتحدث إليها بأمر يهمها ، ولتسر إليها بكلمات أمكن لأذناي التقاطها : « **يجب أن أقابلك غداً على الرصيف ـ ظهراً ـ بكل تأكيد** . . . . » .

وتناولنا طعام الغذاء معاً . كانت (فضيلة) على غير عادتها ، مرحة حتى أبعد حدود المرح . وضحكنا كثيراً . وتحدثنا عن أيام الدراسة في المعهد . وتذكرنا (العصـ . . . يان) والسيد (غروس) أستاذنا في تدريس اللغة العربية ، وسخريتنا منه ، وهزأنا به ، عندما كان يلقي دروسه . واستعدنا كلماته : « آنسة س ـ أو آنسة ي ـ هيا اخرجي من الدرس » « وأنت يا آنسة فضيلة ـ كوني على حذر » . وكان الأستاذ (غروس الأصلع والسمين) يصطبغ أثناء ذلك باللون الأحمر . وهو يحدجنا بنظراته من فوق نظاراته . فكان يظهر لنا وهو يكاد يتفجر غيظاً ، ثم لا يلبث حتى يعود إلى هدوئه ليشرع في توجيه نقده اللاذع ضد الجميع ، وضد أي موضوع . ويبدأ بعد ذلك برواية القصص المضحكة والتي لم يكن يضحك لها إلاّ هو وحده . وعلى

هذا خيم على منزلنا جو من المرح لم نعرفه منذ وقت طويل . وأثناء ذلك قالت (فضيلة) : « إنهم سيشرعون بإجراء المفاوضات في (مولون) وسنحصل في هذه المرة على الاستقلال بكل تأكيد » .

لقد كانت اليوم شديدة التفاؤل ، صافية النفس ، خلافاً لعادتها ، إذ كانت باستمرار تظهر مستغرقة في تفكير عميق ، وتتصرف بجدية مطلقة . وكان ذلك مبعث بهجتنا ، فضحكنا كثيراً ومن أعماق قلوبنا . وكان يوماً لا ينسى . غير أن أختي الصغرى قطعت علينا مرحنا ، وأثارت تشاؤ منا عندما قالت : « إن من يضحك الجمعة ، سيبكي يوم الأحد » . وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة .

تركتنا (فضيلة) وكلها مرح وتفاؤل ، وكانت قسمات وجهها تعكس ما يعتمل في نفسها من صفاء وطهر ونقاء ، فمضت والابتسامة الحلوة على شفتيها . لقد كانت مقتنعة باقتراب موعد السلام . فغرست في نفوسنا نواة الأمل باقتراب فجر المستقبل الذي سيشرق بإذن الله . وقالت لأمي (ليلى) التي كانت مثل أمها أيضاً ، وهي تودعها : إذن ! إلى الغد ! . وأجابتها أمي : إلى اللقاء غداً . ولما كنت على وشك الوضع لمولودي الثالث ، فإن (فضيلة) لم ترغب بالذهاب قبل أن تهمس لي بأمنيتها : « أتمنى أن تضعي لنا هذه المرة مولوداً ذكراً » .

لم أتمكن من منع نفسي عن التفكير بأمر (فضيلة) بعد أن غادرتنا ، فقلت مناجية :

« ماذا ينقصك في هذه الحياة وماذا تفتقدين ؟ إنك يا (فضيلة) فتاة لا تقاوم ! ويحبك الجميع حيثما ذهبت وأين حللت . إنك برقتك تجتذبين كل من حولك ! وباستطاعتك رعاية أسرة سعيدة . إنك زهرة متفتحة ، تعيشين في يسر وبحبوحة ! ابتسامتك البريئة تظهر غمازتيك

الحلوتين . ولون بشرتك الصافي ، وعينيك البراقتين ، وشعرك الأسود الحريري الذي يحيط بوجهك الملائكي . ويعترف كل من عرفك بأنك مثال للفتاة الجميلة والرقيقة والفاتنة . إنك تمتلكين كل شيء : الأنوثة والرقة ، البساطة والشجاعة ، الحزم والعقل والذكاء والخيال الخصب ، فماذا ينقصك ؟ إن ما ينقصك هو (العدالة والحرية) . إنك لا تريدين العودة مرة ثانية إلى الوحل . ولهذا اخترت طريق الثورة ، فمضيت لإيقاظ النيام من سباتهم ، وأشعلت فيهم لهيب الثورة . لقد خضت صراعاً مريراً ، ونذرت نفسك لخدمة بلادك .

ذهبت والدتي (ليلى) إلى (الرصيف) في الموعد المتفق عليه . وكان تفكيرها مركزاً على ما ستتسلمه من (فضيلة) . إنها ستأخذ منها رزمة من البريد لتنقلها بدورها إلى (السيد العربي) .

قرأت (ليلى) وهي تقترب من مكان اللقاء ، إمارات الحزن على وجوه المارة . كان المكان مكتظاً بالناس . وقد احتشد الدهماء بأعداد كبيرة في المكان المحدد للالتقاء . وكان الناس يتحدثون بأصوات مرتفعة ، ويلوحون بأيديهم بإشارات غامضة ،وكأنهم يعلنون احتجاجهم ضد عمل من الأعمال . وانتاب (ليلى) شعور من القلق ، وتجنبت الاقتراب من الجموع المهتاجة . وكان من المحال عليها ـ في كل الأحوال ـ شق طريقها من أجل الوصول إلى حيث تريد . وصادفت رجلاً منفرداً ، وحاولت أن تعرف منه جلية الأمر ؛ وسألته : « ماذا حدث ؟ » . وأجابها هذا : قتلوا اثنين من الفدائيين ـ رجلاً وامرأة ـ . وأسروا رجلاً ثالثاً . وفي ذروة الانفعال عاودت (ليلى) السؤال : ومن يكونون ؟ . وأجاب الرجل : لا أحد يعرف أبداً ؟ فالحي مطوّق بكامله ولا أحد يستطيع أن يرى شيئاً . .

وشعرت (ليلى) فجأة بضيق يعتصر صدرها ، وفكرت على الفور (بفضيلة) . إذ كان عليها مقابلتها في هذا المكان ذاته . وتلاحقت أنفاس (ليلى) حتى لتكاد تختنق . وعادت بخطى متسارعة حتى تصل إلى منزلها ، وعندما دخلته كانت بادية الاضطراب بحيث لم تتمكن من إخفاء انفعالها . وأخذت فور وصولها بإتلاف الوثائق والرسائل التي كانت بحوزتها . ماذا حدث؟ وماذا يمكن أن يحدث ؟ . .

وهيمن على منزلها مناخ من الهياج والانفعال . وبات القلق شعوراً قاتلاً لا يمكن احتماله . وأظلمت السماء ، معلنة اقتراب هبوب العاصفة .

ماذا حدث ؟ لم يكن هناك من يجرؤ على التعبير عما كان يجيش في خاطره . كانت الحقيقة تخيفنا جميعاً . وتعاظم قلقي حتى أنني قضمت أظافري دون أن أشعر بذلك . وعلى هذا أمضينا ليلتنا ، ومضى الظلام ولم يغمض لأحدنا جفن ، كانت ليلة لا تنسى . وما أن طلع النهار ، حتى أسرعت إلى بائع الصحف الذي كان دكانه يقع في أسفل المبنى حيث يقع منزلنا . واشتريت صحيفة (ديبيش ـ دو ـ قسنطينة) وأمسكتها بضيق ، وبيد مرتجفة فيما كان جسدي كله يرتجف ويهتز بعنف ، وفتحت صفحات الجريدة ، فصدمتني على الفور ثلاثة صور تغطي الصفحة الأولى : إنها صور (فضيلة) و(عمر كيخيا) و(رواج) . **وصرخت بصوت مختنق : فضيلة ماتت ؟ كيف ، وهل هذا ممكن ؟** وشعرت بقواي تنهار حتى لتكاد قدماي تخونانني وأنا أهرب مسرعة . وأطلقت صرخة وأنا أجهش بالبكاء ، ولم أعد أرى الطريق بعد أن أسدلت الدموع ستاراً على عينيّ ، وشعرت بألم حاد في أحشائي ، لقد أخذ الجنين في التحرك بعنف ،

وكأنه يشاطرني ما أنا فيه ؛ واستمر لساني في الهذيان : فضيلة ، يا الله ، لماذا ؟ وعمر ! و(رواج) ! . . ولا زالت الصحيفة في يدي وأنا أقتحم باب المنزل صارخة ، ـ أماه ـ أبتاه ـ **أنظروا ! لقد ماتت (فضيلة)** .

وبكت والدتي حتى احمرت عيناها ، وانتحت بي جانباً لتقول لي : اهتمي بنفسك ، وانظري إلى حالتك . هل نسيت أنك ستضعين مولودك . . قريباً .

* * *

مضت (فضيلة) عن هذه الدنيا ، ولم تخطئها يد القدر في هذه المرة . غير أن الأسئلة لا زالت تلح علينا وتشغل تفكيرنا ، كيف ماتت ؟ وهل تعذبت قبل أن تلفظ أنفاسها ؟

وذهبت والدتي (ليلى) فوراً لتعزية والدة (فضيلة) في مصابها ، ومعرفة تفاصيل ما حدث . وكانت الام اليائسة قد جلست تحت ثقل كارثتها حتى لم تعد قادرة على الوقوف ، كانت متهدمة محطمة ، قد تغيرت كل ملامح وجهها ، وتورمت عيناها لكثرة البكاء . وكان رجال الشرطة قد وصلوا إلى هناك . لينقلوا إليها تفاصيل المأساة الجديدة . وكانت كل كلمة من كلماتهم كافية لتمزيق أشد القلوب قسوة إلآ قلوب الاستعماريين :

كانوا ثلاثة قد وصلوا إلى منزل (الرصيف) حيث الموعد . واكتشف الإفرنسيون أمرهم ، وأرادوا أخذ (فضيلة) وهي على قيد الحياة . فنادوها مرات كثيرة حتى تخرج إليهم ، واستمرت في الرمي حتى نفذت ذخيرتها ، **ثم صعدت الى السطح وهي تصرخ بملء صوتها القوي** :

لا ! . . . ثم لا ! . . . ثم لا ! . . .

وقامت القوات الإفرنسية بتطويق المنزل وإحكام الحصار حوله ، فلم يكن من الصعب تمزيق جسد (فضيلة) بالرصاص ، فهوت الى الأرض وقد فارقت الحياة .

كانت (فضيلة) تعرف أن استسلامها لأعدائها يعني البوح بأسرارها . إنها تعني الخيانة ، وليس باستطاعة فضيلة أن تخون أحداً أو تغدر بأحد .

سقطت (فضيلة) ميتة ، وغير بعيد عنها كانت ترقد جثة (رواج) وسط بركة من الدماء . أما (عمر كيحيا) فقد حاول الهرب حاملاً معه جراحه ، غير انه لم يذهب بعيداً ، فقد ألقي القبض عليه ، ولم يتأخر عن اللحاق بأخويه المجاهد والمجاهدة .

يا للمسكين (عمر) ، لقد كان يفكر وهو يهرب - يقيناً - بأمر زوجته الشابة التي ستصبح أرملة وهي في نضرة العمر ، وكذلك بابنه الصبي الصغير الذي سيتركه لقدره . ولعل شجاعته قد خانته في هذه اللحظة بالذات وهو يحاول الفرار . وعلى كل حال ، فإن (عمر) لم يقتل لسبب تافه ، وإنما استشهد مجاهداً بطلاً ، ما عرف عنه إلاّ أنه شاب شجاع حتى حدود التهور . ولقد مضى على الطريق الذي سبقته إليه بثوان قليلة (المجاهدة فضيلة) ومن قبلها شقيقتها (مريم) . وهو ذات الطريق الذي مضت عليه قافلة (شهداء الثورة) .

قدمت والدتي (ليلى) العزاء بكلمات قليلة إلى الأم البائسة بمصابها الجديد ، ثم ودعتها وعادت إلى المنزل . وقد كان مصاب أم (فضيلة) بابنتيها أكبر من كل عزاء . وإن أكبر محنة تتعرض لها امرأة هي فقد أحد أبنائها ، فكيف بها وقد فقدت (مريم) من قبل

وهي تبتلى بعد ذلك بابنتها (فضيلة) . لقد باتت أماً لشهيدتين على التتابع ! ولم يبق لها في هذه الدنيا إلاّ ابنتها الثالثة (عزيزة) وهي ابنتها البكر ، فكانت تضع رأسها على كتفي ابنتها وعلى صدرها ، ما بين فترة وأخرى ، وتبكي بحرقة ، لعلها تتنسم في صدر ابنتها ريح أختيها ، وتتشبث بها بكل ما بقي لديها من قوة ، ولعلها كانت تخشى أن تفقد أيضاً ما بقي لها من عون ومن أمل في هذه الحياة .

ومضت أسابيع ،

وجاءت ليلة تحمل معها آلام المخاض ، وشعرت بالقلق ينتابني في بداية الأمر ، واشتد الألم فأخذت أتعجل طلوع النهار . كان البيت هادئاً ، ساكناً . وتحسست الجدران في الغرفة نصف المظلمة ، وأنا أفكر في كل شيء ، إلاّ فيما أنا فيه . غير أن نوبة من الألم زادت في شدتها على كل ما سبقها حملتني على القفز من سريري . يجب استدعاء سيارة الإسعاف . غير أن أمر منع التجول ، حظر تحرك أية مركبة أو آلية في الليل - حتى سيارات الإسعاف - فحملني أهلي إلى المستشفى التي وضعت فيها ابنتاي من قبل . وقالت لي ممرضة كنت أعرفها : إنك ستضعين لنا في هذه المرة صبياً ... ومضت فترة قصيرة ، وضعت بعدها بنتاً - إنها ابنتي الثالثة . وسمعتهم يتحدثون من حولي :

- سنطلق عليها اسم (فضيلة) . واتفق على ذلك زوجي وأهلي والجميع ، من غير اعتراض أو مناقشة ، لقد أحبوا أن يبقى اسم (فضيلة) حياً بيننا . أما أنا ، فلم أحاول إتاحة الفرصة أمامهم لأخذ رأيي في الموضوع . وأخذت ابنتي ، وضممتها إلى صدري . لقد استشهدت (فضيلة) يوم ١٨ حزيران - جوان - ١٩٦٠ .

وها قد مضت على الحدث الأليم أربعة عشر عاماً ـ عند إعادة تسجيل الحدث من خلال ما يحتويه (صندوق الذكريات)، وأصبح عمر ابنتي فضيلة أربعة عشر عاماً . وعدت الى أولادي بعد رحلتي مع أحداث الماضي ، وقلت لهم :

ـ هيا ! أعيدوا ترتيب كل شيء .

وتمضي السنوات ، وتبقى ذكرى (فضيلة) نابضة بالحياة في قلوب كل من عرفها . إن ذكراها ستبقى ماثلة أبداً في عيون الوطن وفي عيون أبناء مدينتها . وسيذكرها أبناء معهدها كل يوم عند مرورهم باللوحة التي حملت اسمها :

(معهد فضيلة سعدان) .

فهرس الموضوعات

استهلال ....ص 02

دلالة الخنساء في التراث ....ص 04

نموذج للخنساء ....ص 13

خنساوات مضحيات ....ص 17

مجاهدات في طي النسيان ....ص 19

خنساوات شهيرات ....ص 23

إحصائيات لمشاركة المرأة ....ص 33

نماذج من خنساوات الجزائر ....ص 35

ملحق :

مقتطفات من كتاب (المجاهدة الجزائرية لبسام العسلي)

1 / قصة عقلية و زوجها ....ص 56

2 / مع فضيلة سعدان ....ص 73

الفهرس ....ص 94

الـــــجـــــلفـــــة

الطبعة الأولى :

فيفري 2018